

اقرأ

على الجاهل

الشاعر الطمّوح

8



دار المعارف بمصر

الشاعر الطمّوح

اهداءات ٢٠٠١

أ.د. محمد ك. طيـب

جراح بالمستشفى الملكي المصري

على الجاهل

الشاعر الطمّوح

أقرأ ٥١

دار المعارف بمصر

اقراً ٥١ - الطبعة الرابعة

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.

وقیعة

فارس فارع القد ، وسیم الطلعة ، تكشف أساریر وجهه
عن نبل عریق ، وشرف رفیع ، وتنطق ملامحه ونظرات عینه
بشجاعة تفرق منها الشجعان ، وبطولة يعزّ مثلها على الأبطال .
وكان يتقلّد سيفاً حلی غمده بالذهب ، وزین بنفس الجوهر ،
ويتنكبّ ریحاً تقبل أشعة الشمس سنانہ فترسل بریقاً وهّاجاً
يكاد یُحسّر العیون . وقد امتطى جواداً كريماً راح یهملج فی
بحّرة وزهو ، كأنه كان يعتز بكرم سلّالته ، أو يتيه بشرف
منبت فارسه الشعشاع .

سار الجواد بین الوحد والحبب فی طرق مدينة حلب ، فی
يوم صائف من سنة إحدى وأربعین وثلاثمائة ، فانفجرت السابلة
عن طريقه كما تنفرج أمواج البحر أمام سفينة تداعب شراعها
الرياح ، وأخذ الناس يتهايمسون فی إجلال ونخشة : هذا
أبو فراس ! هذا ابن عم الأمير ! هذا بطل حصن بروزيه !
هذا فارس الدولة وشاعرها المغرّد ! وكان بین القوم رجل قوى
الأسر مفتول العضل ، ظهرت فی وجهه سطور كتبها السيوف ،
ونقطتها النبال ، فدلّت على أن عمّاراً القضاعيّ جنديّ قديم
مغامر ، عرك الوقائع وعركته ، وخاض غمارها فغمرته . قال
عمّار لمن بجانبه فی صوت خافت :

— لقد شهدتُ خمسَ وقائعٍ مع هذا البطل ، رأيتُ فيها من إقدامه وجراته ، وصدق درايته بالحروب ، ما يكاد يذهل المجاهد عن كوارث الحروب . فأجابه صاحبه :

— لقد كنتُ إذاً مشاهداً لا محارباً . فابتسم عمار ابتسامة مبهمة فيها ازدراء ، وفيها رفق القوي بالضعيف ، وفيها اعتزاز الشجاع بمكانته . ثم قال :

— كنتُ مشاهداً حقاً ولكن لا كما تشاهد اليوم أبا فراس ، وهو يتمايل فوق جواده اللعوب في دروب حلب ، وقد نصبت السليم على المدينة رواقها ، وأصبح أهلها لا يخافون إلا من سهام عيون الحسان ! دعك يا صاحبي من ذكر الحرب والمحاربين فتلك دماء طهر الله منها سيوف الجبناء .

— أتعدّ كلّ من لم يشهد الحرب جباناً ؟

— إن اقتراب الروم من أطراف مملكتنا ، وضعفهم القديم الموروث على المسلمين وملوك المسلمين ، وادّعاءهم أن بلادنا قطعة من مملكتهم الواسعة ، اغتصبها منهم الإسلام بسيفه ، ثم ما أعدّوه لنا من غوائل الحرب ؛ كالنار اليونانية والدبابات الهائلة ، كل هؤلاء مما يوجب الجهاد ويدفع كل مسلم إلى امتشاق الحسام والموت في سبيل دينه ووطنه شهماً كريماً .

— أما أنا فلن أمتشق الحسام ، ولن أخوض غمار الهيجاء . فنظر إليه عمار في اشمئزاز ، وقال ولسانه يتعثر من الغيظ :

— كنت أظنّ قبل أن أراك أن اللحى من خصائص الرجال .

— وهى لا تزال من خصائص الرجال ، وإن أمامك لرجلاً .
— رجل بلا قلب .

— رجل لولاه ما امتلأت خياشيمك كبيراً ، ولا انثنى عطفك تيهاً عند ذكر الحرب والنزال .

— من تكون ؟

— أكون كما أكون .

— بالله قل لى من تكون ؟ فأجاب الرجل وفوق شفتيه ابتسامة ماكرة :

— أنا يا سيدى الشجاع المغوار صانع سيوف ، لولا يده هذه ما جرّدت أنت ولا قائدك أبو فراس فى الحرب صمصاماً . فضحك عمّار طويلاً ومدّ يده إلى صاحبه فى سرور ، يشعر به من وجد فى عدوّ صديقاً جديداً . ثم أخذ يشدّ على يده ويهزّها هزّاً ويقول :

— صانع سيوف ؟ ! حقاً لولاك ما حملتنا إلى الجهاد قدم . نعم يا صاحبي ، أنت لا تشهد الهيجاء ، ولكنك حقاً نون النصر فيها وصاده وراؤه ، ولولاك ما عزّ للمسلمين جانب ، ولا خفق على حصونهم عتلم . انظر ما أظنّ أبا فراس إلا ذاهباً إلى قصر الرحبة .

— إني لمحت فى وجهه كُدرة الغضب ، وأخشى أن يكون

قد جاء إلى الأمير نذير جديد من قبيل الروم .

— أظنهم سيقضون وقتاً طويلاً يلعبون فيه جراحهم ، بعد هزيمتهم في « سروج » . تلك كانت موقعة رائعة حقاً . لقد زحف فيها الروم علينا في عديد الحصن ، وقد اشتجرت رماحهم حتى سدّت الأفق ، وصال بطاريقهم ، ووثبت دباباتهم ، وتطايرت نيرانهم التي لا تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالريم . وقد أعجبته في ذلك اليوم قوتهم ، وزهاهم ما أجلبوا به من خيل ورجل وعدة وعتاد ، وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً ، واتجهت عينا سيف الدولة إلى السماء في رجاء المستغيث ، حتى إذا اشتد الكرب ، وبلغت القلوب الحناجر ، سمعنا على الرغم من لجب الحرب وزمازمها ، صوتاً مجلجلاً يصيح : إلى إلى أيها المجاهدون ! إن أبا فراس قائدكم المفاخر بشجاعتكم ، يدعوكم لتختطفوا ثمر النصر من أيدي هؤلاء العلوج . إن دباباتهم لن تغني عنهم اليوم شيئاً ، وإن قلباً يملؤه الإيمان ، وذراعاً تشدها العزيمة ، أقوى من كل ما جمعوا وعدّوا . إننا أيها الأبطال لم نجاهد لأرض وقلاع ، وإنما نجاهد لدين وتاريخ ومجد قديم . إن الروم إذا برعوا في الحرب فهم في الفرار أبرع إذا حمى الوطيس ، وصدقت الحملة . إلى إلى أيها المجاهدون ، ثم إلى اللجنة إلى اللجنة أيها الشهداء ! وما كاد يتم نداءه حتى وثب بجواده نحو الحصن ونحن خلفه كالأسود الغاضبة ، ريع حماها ،

وديس عرينها ، وتكاثر حوله الروم فكان يطوح برءوسهم يمينه ويسرة ، كما ينثر الزارع الحب . حتى إذا وصل إلى القمة خلع راية الروم ، وقذف بها في التراب ثم صاح : الله أكبر ! الله أكبر ! فردّ الجيش صيحته ، وتواثب المسلمون على الحصن ، حتى أجلاوا الروم عنه ، فانطلقوا خلف بطاريقهم في سرعة الريح يلتمسون الفرار ، وعاد المسلمون بالنصر والأسرى والأسلاب والغنائم .

— لقد كان ذلك فتحاً مبيناً .

— وسيتلوه فتوح لو اتحد العرب ، وكانوا يداً على من سواهم . عم صباحاً يا صاحبي ، واعمل في طبع السيوف ليل نهار ، فإنني أخشى أننا لا نزال في بداية صراع طويل الأمد . بلغ أبو فراس أرض الحلبة ، وهي في سفح جبل الجوشن ، ووصل بعد قليل إلى قصر سيف الدولة بن حمدان ، وكان قصراً سامق البنيان ، يُطلُّ على نهر قوَيْقُ ، بذل فيه المهندسون والرسامون كل ما في مكنة البشر من إبداع ، وزينت حيطانه وسقفه بالنقوش البارة ، والتهاويل الرائعة ، وكان لقاعته الكبرى ، وهي قاعة الرسل خمس قباب تحملها اثنتان وأربعون ومائة سارية من الرخام الأبيض الناصع ، المحلى بالذهب . وبها مئات من النوافذ الزجاجية البديعة الألوان ، أما الأثاث فكان فوق ما يصف الشعر ويرسم الخيال ، وقد أحاطت بالقصر الحدائق والبحيرات يجري إليها الماء من تماثيل سمك ضخمة ،

صنع من خالص النضار ، وركبت له عيون من ثمين الجواهر .
وما كاد أبو فراس يشب من صهوة جواده ، حتى تلقاه
بشارة ونجا ، غلاما سيف الدولة ، بما يليق بمنزلته من إجلال
وحفاوة ، وكان أبو فراس لا يزال عابساً متجهماً الوجه ، فانحنى
نحوه نجا قائلاً :

— سعد صباح الأمير ، ما للوجه المشرق البسم تعلوه اليوم
سحابة عابسة ؟ فهل في الأمر شيء يا مولاي ؟

— لا شيء يا نجا ، ولكنها ظنون الشاعر وهواجسه ، التي
كثيراً ما تطغى على ثبات الفارس وركانته ، وتصور له في الحلم
ذلاً ، وفي الإقدام طيشاً وجهلاً . أتعرف يا نجا لمن هذا البيت :
كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجئ إليها اللثام ؟
فأسرع نجا وكان من أنصار المتنبي المعجبين به فقال :
— هو يا سيدى لأبي الطيب من قصيدته التي يقول فيها :
إن بعضاً من القريض هُذاء ليس شيئاً وبعضه أحكام

فاربد وجه أبي فراس وقال : نعم إنه لذلك الزق المتفخ
بالعظمة الحمقاء ، والغرور الكاذب ، أين ابن عمي يا نجا ؟
— في القاعة الكبرى يا سيدى . فسار أبو فراس في دهاليز
القصر وأبهائه ، وقد انتثر فيها العبيد والمماليك الروم ، يروحون
ويجيئون في حركة دائبة ، ورهبة وإطراق ، يعرف كيف
يصطنعهما رجال القصور . فلما وصل إلى القاعة تلقاه سيف
الدولة مرحباً باشاً . وكان سيف الدولة جسيماً قسيماً ، واسع

العنين تشعُّ منهما عزيمة المجاهدين ، وفي وجهه سمرة العرب ،
وملامح النبل والبطولة .

أخذ أبو فراس يتحدث عن الجيش ، وما يبذل في إعداده
لمكافحة الروم ، وردّهم إلى تخومهم . فتملأ سيف الدولة
في حزن وأسى وقال : أخشى يا ابن عمي أن القوم هنا لا يدركون
ما يحيط بالدولة من خطر داهم ، فإنني أرى أكثرهم منصرفاً عن
الجهاد ثقةً بي ، واعتماداً على عظم قوتي ، كأن في سيفي سحراً
بأبلياً إذا لوّحت به للأعداء انهارت جيوشهم في طرفة عين . إن
بمملكتي أبطالاً ، ولكن بطولتهم مخبوءة مغمدة ، لأنهم يظنون
أنهم يعيشون في ظلال وارفة من الأمن ، وأن أعظم معونة يبذلونها
للدولة أن يسيروا في مواكبها ، ويأخذوا زينتهم في صدور
مجالسها .

— نحن لا تعوزنا السيوف يا مولاي ، ولا تعوزنا السواعد
المفتولة ، ولا القلوب الضيغمية ، وكل عربيّ منا يضع قلبه
ورمحه في أول الصفوف ، إذا جدّ الجدد ، وأذن مؤذن الجهاد ،
ولكن الذي نحن في أشد الحاجة إليه حقاً أصوات رنانة مجلجلة ،
تثير الحميّة وتلهب العزائم ، وتخلق من اليأس ثقة ، ومن التردد
إقداماً ، وتذكّر بالمجد الغابر ، وتوجّه الأمل الحائر ، وتوقظ
النفوس إلى ما يحيط بها من كوارث تريد أن تنقض . المملكة
يا سيدي تتحرّق شوقاً إلى من يذيع مآثرها ، وينشر مفاخرها ،
ويملاً الآذان بوقائعها المظفّرة ، وبحسن بلاء أبطالها الميامين .

— ألا يقوم المتنبي بهذا ، وهو خير شاعر أنبتته أرض العرب ؟

— إنه لا يقوم بشيء منه يا مولاي ، وهو رجل صليّف تيّاه ، شائك الخلق نافر الطبع ، أبغض الناس فأبغضوه فنفرت قلوبهم من شعره .

— إن بيتاً واحداً من شعره كفيل بأن يملأ الآفاق ، ويشغل الدنيا ، ويرفع الدولة التي يغني بمديحها إلى مسارح النجوم .
— إن الشعر يا ابن العم روح قبل أن يكون لفظاً ووزناً ، وهو شعاع من نفس قائله ، ونور يفيض به قلب صاحبه ، فإذا كانت تلك النفس مظلمة قاتمة مدنسة بالحقير من الأغراض ، وكان ذلك القلب نهياً للأطماع الدنيئة . جاء منهما الكلام فاتراً خائراً مقطوع النفس ، ضعيف المنة .

— هل ترى من هذا النوع قوله :

بدا قضت الأيام ما بين أهلها

مصائب قوم عند قوم فوائد ؟

— وماذا في هذا البيت يا مولاي ؟ إنه لم يبذل فيه جهداً ، ولم يعمل روية . ويعلم الله أنه استرق معناه سرقة الطرّار البارع في النهار المبصر . استرقه من شاعر دفتته يا مولاي حياءً بالانصراف عنه ، والاستهانة بشعره . استرقه من شاعر غني بمجد دولتك ، فما ألقى إليه سمعاً ، وأشاد بما ترك فما حققت له أملاً . ذلك الشاعر يا مولاي هو أبو الحسين الناشئ الأصغر ، الذي يقول

فيك حينما شغلك عنه انصرافك إلى ذلك المتنبي ، واحتفاؤك
به ، وإسكات كل صوت للشعراء دونه :
إذا أنا عاتبت الملوك فإنما

أخطئ بأقلامي على الماء أحرفاً ،

وهبه ارعوى بعد العتاب ألم يكن

تودده طبعاً فصار تكلّفاً ؟

— حقاً كان من حق الناشئ على أن ينال من إقبال عليه
ما هو حقيق بشعره وأدبه ، إني أعذره يا أبا فراس ، فقد أبطأ
عنه عطائي حيناً من الدهر طويلاً : هل سرق معناه الرائع
من هذا الشاعر الذي ظلمناه وبخسناه حقه ؟

— نعم يا ابن العم سرق المعنى من قصيدة لهذا الشاعر ينوّه
فيها بصولة بني حمدان ، ويذمّ بني العباس ، الذين لا يفتنون
يدسون لهم الدسائس غيرةً وحسداً ، ويغرون في الخفاء بعض
القبائل الخارجة علينا ، كبنى كلاب وبني العجلان ،
بالانتقاض على مملكتنا ، ومصارحتنا بالعصيان فهو يقول :
إليكم بني العباس غنى فإنني

إلى الله من ملى إليكم لتائب

تركتم طريق الرشد بعد اتضاعه

وأقصاكم عنه ظنون كواذب

أترضون أن تطوى صحائف عصبه

كرام لهم في السابقين مراتب ؟

فلا تذكروا منهم مثالب إنما

مثالب قوم عند قوم مناقب

— حيّا الله أبا الحسين ! لقد أحسن الذود عنا ، ولكنى
لا أرى أن أبا الطيب سرق منه معناه ، لأن هذا فى ناحية ،
وبيت أبى الطيب فى ناحية ، إلا أن تدعى أنه سرق الأسلوب
والأسلوب ملك شائع لجميع الشعراء . لا يا ابن العم إن المتنبي
أرفع قدراً ، وأبعد منزلة فى الشعر ، من أن يتدلى إلى فتات
غيره . إننى شاعر قبل أن أكون ملكاً وفارساً ، ومعرفى بابتداع
الكلام لا تقلّ عن درايتى بامتشاق الحسام .

فأريد وجه أبى فراس قليلاً ، وأطرق واجماً ، ثم رفع رأسه
وعلى وجهه ابتسامة الظفر ، وقال :

— مهلاً يا ابن العم ، فما خالجنى شك من تمكّنك من
ناصية الشعر ، واستذلّالك أوابد المعانى . ولولا ذلك ما أجاد
شعراء المملكة فى مديحك ، ولا جودوا فى الثناء عليك ، لأنهم
يعلمون أنهم يعرضون نسيجهم على خير بزّاز ، ويقدمون فهم
إلى أمهر الأدباء فى تصاريف الكلام . ولعمري إن شاعراً لم
يسبق مولاي فى وصف قوس قرح حين يقول :

وساقٍ صبيحٍ للصبوح دعوته

فقام وفى أجفانه سنة الغمض

يطوف بكاسات العقار كأنجم

فمن بين منقض علينا ومنقض

وقد نشرت أيدي الجنوب مظارفاً
على الجود كُنا ، والحواشي على الأرض
يطرّزها قوسُ الغمام بأصفر
على أحمر في أخضر تحت مبيض
كأذيالِ خَوْدٍ أقبلت في غلائل
مصبغة ، والبعض أقصر من بعض
وإذا لم يرض مولاي أن يكون المتنبي قد أغار على بيت
الناشي ، فما أظنه يجحد أن شاعره اللص سرق هذا المعنى بعينه
من قول الحارث بن حلزة :
ربما قرت عيونٌ بشجاً مُرْمِضٍ قد سخنت منه عيون
وأكبر الظن أن شاعره ، وهو أعجز من أن يمتدّ حفظه إلى
العهد الجاهلي ، وجد الطريق سهلة مذلة إلى حبيب بن أوس
الطائي ، فاغتصب المعنى من قوله :
ما إن ترى شيئاً لشيء محيياً حتى تلاقيه لآخر قاتلاً
ماذا تقول يا سيدي في هذه السرقة الصارخة ، وتلك الإغارة
الوقحة ، التي لا تقلّ عن إغارات اللصوص ، وقطاع الطريق ؟
— لقد نظر المتنبي إلى معنى الطائي ما في ذلك شك .
— ثم إن هذا السارق لا ينكس رأسه خزيّاً ، بل ينفخ
نخاشيمه ، ويتحدّى كل شاعر من شعراء مولاي في جبريّة
وعجب ، إنه في هذه القصيدة التي استشهد مولاي بيت
منها يقول :

خليلي ما لي لا أرى غير شاعر
 فلم منهم الدعوى ومنى القصائد ؟
 ويقول في أول قصيدة أنشدها بين يدي سيدي :
 غضبتُ له لما رأيتُ صفاته

بلا واصف ، والشعر تهذي طماطمه
 فيصف جميع شعراء مملكتك بأنهم عجم لا يبينون ، وعلوج
 لا يفهمون ، وأشهد أن الشعراء لم يغضوا عنه عجزاً عن معارضته ،
 فإن لكل منهم لساناً لو ضرب به حجراً لقلقه ، وإن في شاعرك
 المغرور المتشدد من وضاعة النسب ، وسماجة الخلق ، ولؤم
 العنصر ، ما يغري ضواري الشعراء ، وما تتحلب له نهماً أفواه
 الهجاء ، ولكنهم سكتوا مرغمين محزونين ، لأنه في كنف مولاي
 وحمايته ، ولأنهم يظنون أن ثلبه ، وتمريغه في التراب ، قد
 يغضب مولاهم ، فتركوه لك يا سيدي ولكنك تركته عليهم
 يمزق أعراضهم ، ويسخر من فهم ، ويتحداهم في بداءة
 وجبروت ، وقد كان من أثر هذا أن انصرف الشعراء عن
 مدحك ، فلا يحبك منهم شاعر بكلمة ، وتفرد بك هذا الشاعر
 الدخيل فأخذ يتيه عليك ، ويخاطبك مخاطبة الند والنظير ، ويمر
 العام فلا يجود عليك إلا بقصيدة أو قصيدتين . بعد أن تلح
 في الطلب ، وتلحف في المسألة ، وبذلك انقلب الوضع ، وعكس
 الأمر ، وأصبح الأمير يستجدي شاعره ، وأصبح الشاعر يراوغ
 ويماطل في العطاء ، ما هذه الحال يا مولاي ؟ !

— لقد قلت حقاً يا ابن العم ، ولكنى أخشى إذا انصرفنا
 عن هذا الشاعر أو صرفناه ، أن يلحق بأعدائنا ، فيرفع من
 شأنهم ، ويشيد بمجدهم . وقد علمت أن عبد الإخشيد بمصر
 يبذل الآن فوق ما يستطيع لاستهوائه وإغرائه بالجاه والمال ،
 ليصل إلى أرض مصر ، ولست تجهل يا أبا فراس ما بيننا وبين
 الإخشيد من عدااء محتدم ، فقد وثبت علينا جيوشه منذ سنوات
 فاستولت على دمشق زينة العواصم ، وغزوة جبين الشام .
 فإذا ذهب المتنبى إلى العبد زاد دولته قوة ، ومسح عنه عار
 الرق ووصل نسبه بمعد بن عدنان . ثم إنى أخشى ، وهو لدود
 الخصام علقمى اللسان ألا يتعفف عن أن ينالنا بهجائه ، وهو
 نفسه الذى يقول :

ومكايدُ السفهاء واقعةٌ بهم وعداوةُ الشعراء بثس المقتنى
 — إنه لن يذهب إلى مصر يا مولاي ، كن من ذلك على
 يقين . إنه يذهب إلى العراق ، ليتصل بالخليفة والوزير المهلبى
 فإن كبره سيزين له أنه أحقُّ شعراء الأرض بالاتصال بالخليفة ،
 وأن شعره أغلى من أن يبعثر على الأمراء وحكام الأطراف .
 وإذا بلغ بغداد يا ابن العم فإن مائة دينار من خزانتك هذه ،
 ترسل إلى ابن الحجاج وابن سكرة ، وهما أقذع الشعراء هجاء ،
 وأفحشهم سباباً كفيلة بأن تشغله عن هجاء الناس جميعاً ،
 وتدفعه إلى الانصراف إلى نفسه .

— لا أكذبك أبا فراس أنى سئمت كبره وإدلاله وتجنّيه ،

ولن أنسى ما اشترطه على ذلك الأحقق عند أول اتصاله بي من
 ألا يكلف تقبيل الأرض بين يدي ، وألا يخلع سيفه في حضرتي ،
 وألا ينشدني شعراً إلا وهو جالس ، ولقد قبلت منه كل ذلك
 على مضض ، حين ظننت أن إغداقي عليه ، وإحساني إليه
 يروضان من نفسه الجاحجة ، فما أجدى ذلك فتيلاً .

— إنك يا مولاي تمنحه كل عام ثلاثة آلاف دينار ، غير
 ما تفيض عليه من الصلوات والهبات ، ثم إنك لا تظفر منه بعد
 كل هذا إلا بثلاث قصائد ، نصف أبياتها في مدح نفسه ،
 والازدهاء بمواهبه ، ولو فرقت في كل عام مائتي دينار على
 عشرين شاعراً لآثوا بالمعجز المطرب ، ولبدوا ذلك الوقح في كل
 ما يتبجح به من إجادة وإعجاز ، إن شعراء مملكتك ، والشعراء
 الوافدين عليك قد يزيدون على المائة وهم يا ابن العم يرتقبون منك
 نظرة عطف ، ليملئوا الدنيا باسمك دويماً ، ويرسلوا أجنحة الشعر
 بمدحك خفاقة في الآفاق .

— صدقت أبا فراس لن يكون لهذا الشاعر الزنم مكان
 من رعايتي بعد اليوم ! غير أنني أرى أن نخرج من هذا الأمر
 بكياسة ورفق ، كما دخلنا فيه بكياسة ورفق .

— هذا ما أشير به يا مولاي ، ويكفي أن تصد عنه شهراً

حتى يزعم الرحيل .

وحينما انتهى أبو فراس من إحكام مؤامرتة ، حينما سيف
 الدولة وانصرف . وما كاد يعود إلى قصره ، وكان بالقرب من

برج أبي الحارث ، حتى رأى به طائفة من الشعراء ينتظرون
 عودته ، بينهم أبو العباس النامى ، وأبو الحسين الناشئ ،
 وأبو القاسم الزاهى ، وأبو الفرج السامرى ، وكان من ألد أعداء
 أبى الطيب الحاقدين عليه . فلما رأوه همّوا لاستقباله محتفين ،
 وظففتوا يسألونه فى شوق وطفة عما تم فى أمر المتنبي وسيف الدولة .
 فنفض إليهم جملة الخبر ، وحدّثهم بصوت الظافر المنتصر .
 بما عزم عليه سيف الدولة من نبذ المتنبي ، وتقريب شعراء
 مملكته . فطار الفرح بقلوبهم وأخذ كل منهم يفكر فى مطلع
 قصيدة يمدح بها سيف الدولة ، ليكون من السابقين الأولين .
 أخذ سيف الدولة يفكر فى أمر المتنبي ، بعد أن تركه
 أبو فراس وقد تراكت عليه الهموم ، وانتابته الظنون ، وعبثت
 به الهواجس . فهو مرة يرى أن أبا الطيب صِنّاجة ملكه ، وناشر
 فضله ، وأنه الغاية التى تتقطع دونها أنفاس الملوك ، والحلم الذى
 يتطلّع إلى تحقيقه كل أمير ، وأنه أشعر من رددت أصداءه
 آفاق العرب ، وأندى صوت يجلجل بالشعر فيخوض البحار ،
 ويثب الجبال ، لا يقف دونه سد ، ولا يعترضه حائل ، وأن
 شعره جيش أقوى من الجيش ، وعتاد يزدرى بكل عتاد . من
 هو سيف الدولة حتى يظنّ بدولة الشعر كلها مجتمعة فى رجل
 يمجّد فعّاله ، ويخلد محامده ، وييث الرعب فى قلوب أعدائه ؟
 يرى سيف الدولة كلّ هذا ، فيرفع رأسه باسماً مبهجاً ،
 وقد كاد يُثلج صدره برد اليقين ، ولكنه لا يفتأ حتى تهجم عليه

الوساوس من كل مكان ، صارخةً عاويةً وهي تصيح : ما هذا
التدلى إلى الحضيض ؟ وما هذا الاستخذاء لشاعر مجنون بالعظمة
تيتاه على الملوك ؟ أنت يا ابن حمدان ملك من سلالة ملوك ،
ولكنك في سبيل أمل كاذب ، من نبي كاذب ، نزلت بنفسك
إلى الهاوية حتى صرت له مملوكاً ! أذكر إن كنت ناسياً أنه
يقبل صلاتك الجزيلة أنفياً ، ويتقلب في نعمتك حاقداً . واذكر
إن كنت ناسياً أنه لا يجود عليك بقصيدة إلا كارهاً متثاقلاً ،
ثم اذكر أنك كثيراً ما استبطأت مديحه فأفنت الحيل في
استجدائه ، فتارة ترسل إليه أبياتاً لشاعر ليقول على مثالها ،
وتارة تزعم أنك أعجبت بيت قديم لتستثير خاطره الراكد ،
ونخاله الكليل . كل هذا وهو سادر في غروره وكبريائه ،
يسخر في خبيثة نفسه من الملوك والممالك ، ويردد في صدره
قولته الحمقاء :

أى محل أرتقى أى عظيم أتقى
وكل ما خلق إلا هـ وما لم يخلق
محتقر في همى كشعرة في مفترق
إنه وأيم الحق رجل ثقل الظل ، مستكره الطباع ، ولو
كان ينطق بالوحي ، ويستملى شعره من ملائكة السماء ! إن
نفرة الناس منه ذهبت بروعة شعره ، فلم يجد بين القلوب منزلاً .
ويل له منى ! لن يعيش هذا الرجل في مملكتي بعد اليوم ،
فإنه لا تؤمن عواقبه . وهو حقود لئيم ، يسخط على اليد تمهد

إليه بالإحسان ، ويأنف من النعمة يسوقها إليه كريم . أليس هو القائل :

مدحتُ قوماً وإن عشنا نظمتُ لهم
قصائداً من إناث الخيل والحصن
تحت العجاج قوافيها مضمرة

إذا تنوشدن لم يدخلن في أذن
لا . لا . فليخسأ ذلك المتشدد . أو ليرحل من بلادى إلى
أى بلد شاء . لا أريد شعراً ، ولا أريد ذلك المجد الموهوم
الذى سيخلده شعره .

قال سيف الدولة هذا ، وهو يحرك ذراعيه فعل الغاضب
المحموم . ثم قام متجهاً إلى الجناح الذى به أهله بعد أن زالت
عنه آلام الشكوك ، وسكنت نفسه إلى ما عقد عليه العزم .
وبينما هو يسير فى دهلز طويل ، إذ سمع أصواتاً فى حجرة ،
فاقترب وأنصت ، فإذا غلامه نجا وأبو الحسن بن سعيد راوية
المتنبى يتحاوران ، فأرهمف السمع فإذا نجا يقول :

— إنها من أروع قصائده ، وكل شعره رائع خلّاب .
استمع لى يا مولانا وأصلح خطئى إذا أخطأت :

فدينك من ربّع وإن زدتنا كربا
فإنك كنت الشرق للشمس والغربا

وكيف عرفنا رسم من لم يدع لنا
فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لبنا ؟

فصاح ابن سعيد : هذا شعر كان في صدور الشعراء سرّاً
مكتوماً حتى جاء أبو الطيب فأفشاه ، وكان في كهف الغيب
رحيقاً مختوماً حتى ظهر ابن الحسين ففضّ ختامه . اقرأ يا بني
من مديحه :

هنيئاً لأهل الثغر رأيك فيهم
وأنتك حيزب الله صرت لهم حزبا
وأنتك رعت الدهر فيها ورية
فإن شكّ فليحدث بساحتها خطبا
فيوماً بخيل تطرد الروم عنهم
ويوماً بجود تطرد الفقر والجدا
سراياك ترى والد المستق هارب
وأصحابه قتلى وأمواله نهبي
أتى مرعشاً يستقرب البعد مقبلاً
وأدبر إذا أقبلت يستبعد القربا
كذا يترك الأعداء من يكره القنا
ويقفل من كانت غنيمته رعبا
مضى بعد ما التف الرماحان ساعة
كما يتلقى الهدب في الرقدة الهدبا
ولكنّه ولي وللطعن سورة
إذا ذكرتها نفسه لمس الجنة
الله ! الله ! هذا فيض الكريم الفتاح ، هذا ليس بشعر

يا ولدى ، إنه يكاد يكون من وحي جبريل . إن شعراء سيف الدولة جميعاً أعجز من أن يقولوا :

ولكنه ولى وللطعن سورة إذا ذكرتها نفسه لمس الجنب
فصاح نجا قائلاً : أتعرف يا سيدى أنى كتبت نسخاً
من هذه القصيدة وبعثت بها إلى مصر وبغداد ودمشق وفارس
وإفريقية والأندلس ؟

كان سيف الدولة يسمع هذا الحوار ، ولكنه لم يُطق أن
يصبر طويلاً فدخل الحجرة غاضباً وقال :

ما هذا الهذر الذى تخوضان فيه ؟ قاتل الله المتنبي وشعره !
أكلما ذهبت إلى مكان سمعت الناس يتحدثون فى هذا الوغد
أو يدرسون شعره ؟ إن باني سيغلق دونه بعد اليوم . لقد علمت
من ابن عمى أبى فراس من شأن هذا الرجل ما كنت أجهل .
إنه يتقلب فى نعمتى ويضممر لى ولملكتى أسوأ ما ينطوى عليه
ضمير . فليذهب إلى حيث يشاء ، وليجعل من ملوك الأقطار
التي ينزل بها آلهة تعبد ، فلست فى حاجة إلى هذره وههرائه .
ولما انصرف سيف الدولة التفت ابن سعيد إلى نجا وقال
هامساً :

— دسيسة جديدة ورب الكعبة . لقد أوشك أعداء أبى
الطيب أن يظفروا به هذه المرة ، ولكنى لن أنيلهم مأرباً :
لن أتركهم ينالون من هذا السر السماوى غرضاً . إنه الحسد
يا بنى الذى قتل النبوغ فى العرب ، وذهب بريح العرب . أين نعلأى ؟

— إلى أين أيّها الشيخ ؟
 — إلى أبي الطيب . إلى نادرة عطار . إلى الذى يقول :
 وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

صلح

سار أبو الحسن بن سعيد حزيناً مطرقاً ، يخرج من درّب
 إلى درب ، ويتخلّص من زحام ليغرق في زحام ، وكانت حلب
 في ذلك الحين من أعظم مدن الشام ، تشرف على نهر قويق ،
 ويحيط بها سور شاهق ، بنى بالحجر الأبيض الضخم ، به ستة
 أبواب ، وإلى جانب السور قلعتها الحصينة الحمراء ، التى تطل
 على المدينة شامخة متحدية كما يربّض الأسد حول العرين .
 وكانت فسيحة الطرق ، كثيرة القصور ذات الطابع البيزنطى ،
 كثيرة المساجد والفنادق والمتاجر والحدائق ، مزدحمة بالسكان
 من عرب وترك وأرمن وروم .

سار ابن سعيد حتى بلغ ساحة الناعورة ، حيث القصر
 السامق الذى أهدها سيف الدولة إلى المتنبى ، فولج بابه مهرولاً ،
 فتلقاه العبيد ، وأقبل عليه مسعود كبير الخدم فحيّاه فى أدب
 ولطف . فابتدره الشيخ :

— أين سيدك أبو الطيب ؟
 — فى حجرة الزّوار يا سيدى .

- من معه الآن يا مسعود ؟
- معه الحسين الصنوبري وأبو الفرج المخزومي .
- فم يتحدثون ؟ . فابتسم العبد وأجاب :
- في الشعر يا سيدى . وهل في حلب اليوم حديث إلا في الشعر ، وغزوات الروم ؟

وانقلت ابن سعيد من بين يدي العبد إلى لقاء المتنبي ، فدخل حجرة فسيحة ، ثمينة الأثاث ، فرشت أرضها بالسط الفارسية ، وغطيت نوافذها بسجوف الحرير المصرية ، ونصبت حولها الأرائك ، وكان أكثر ما يسترعى نظر الناظر فيها كثرة خزائن الكتب ، وكثرة المناضد التي أقيت عليها الكتب أكداً ، وكان المتنبي جالساً أو على الأصح مضطجعا على كرسى ضخمة ، في صدر المجلس . وهو طويل فارح في التاسعة والثلاثين من عمره ، خفيف اللحم ، أسمر اللون ، عريض الجبهة ، براق العينين ، شديد سوادهما ، مستقيم الأنف ، ترتفع أرنبته إلى ما يقرب من الشم ، في شفثيه رقّة ، وفي عنقه صيد ، وفي ملامحه ثقة المعتر بنفسه ، وفي نظراته كبرياء العباقرة ، وفي صدره المرتفع ما ينم على ما يملأ هذا الصدر من آمال جسام . وكان يرتدى ثوب فارس كامل العدة ، ويهز قدمه بين الحين والحين في إعجاب وزهو ، فتصطدم بغمد سيفه الذي طال نجاهه .

دخل ابن سعيد فقطع على المتحدثين حديثهم ، وحياه المتنبي بنظرة لطفة ، فيها ترحيب لم يذهب بجماله ما فيها من

كبرياء . وأخذ المخزومي يصل الحديث ويقول :
 - فلما رأيته . . . فابتدره ابن سعيد سائلاً :
 - من الذى رآك ؟

- أبو الحصين الرقى قاضى حلب . كنت أقول : إننى
 كنت ماراً بالأمس بسوق الوراقين ، وكان الرقى جالساً عند
 وضاح بن سعيد الوراق ، فلما رأيته صاح : إلى يا أبا الفرج
 فإن شيطانى لا يريد أن يفارقنى اليوم ، لقد تلجلج فى صدرى
 بيت من الشعر منذ الصباح ، وقد عيل صبرى فى رده إلى
 قائله ، فهل لك أن تنقذ أخاك من خبال الشك ؟ قلت : هات
 يا سيدى ، لعل الله معقب بعد عسر يسراً . قال : من قائل هذا
 البيت يا ابن أخى ؟

خير أعضاءنا الرعوس ولكن فضلتها بقصدك الأقدام
 وكنت أعلم أن الشيخ حاقد على أبى الطيب ، شديد الكراهة
 له ، كثير الإيقاع بينه وبين سيف الدولة . فقلت : قائل هذا
 هو الذى يقول :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام
 فقال أحسن والله وأجاد ! فمن هو ؟ قلت : هو الذى يقول :
 عقدت سنانكها عليها عثيراً لو تبتغى عنقاً عليه لأمكن
 فقال : هذا وحى السموات العلا ! فمن هو والله ولا تطل ؟
 قلت : هو أيضاً الذى يقول :

أقبلتها غرر الجياد كأنمسا أيدى بنى عمران فى جبهاتها

فصاح هذا تشبيه عزّ أن يناله خيال ، من هذا الشاعر ناشدتك
الله ؟ قلت هو الذى يكيد له سيدى القاضى ، ويصارحه
بالعداء ، ويدس له عند سيف الدولة ! فصاح : هو المتنبى
إذاً . آمنت أنه الشاعر ! إنه يا ابن أخى يحينا بشعره ، ولكنه
يميتنا فى اليوم ألف مرة بزهو وإعجابه .

فضحك القوم ، وابتسم المتنبى ابتسامة فاترة ، ملؤها
السخرية والأنفة . ثم قال فى تعاضم :

عجباً لهؤلاء القوم ! إن لم أنزل إلى الوهدة التى تردوا فيها ،
والحمأة التى تمرغوا فى دنسها ، قالوا : إننى مزهو متكبر . إنهم
يسمون الفضيلة عجباً ، والإباء كبراً ، والتتره عن الدنايا تيهاً
وضلفاً ، وماذا أصنع وقد خلق الله لى نفساً عزوفاً عن كل
ما يشين ، طموحاً إلى ما فوق السماء إن كان للسماء فوق ؟ وإنى
أشهدكم أنى ضقت بهم قبل أن يضيقوا بى . إننى طائر يعيش
فى غير وكره ، وأمل حائر لا يجد له مستقراً ، ولطالما نفرت
نفسى من مجالسهم ، واشمأزت من عبثهم ولهوهم . فإنى إذا
لم أعاقر الخمر معهم ، قالوا جلف نانى الخلق سيئ المعاشرة .
وإذا لم أهدل إلى مغازلة النساء المتبدلات ، قالوا : سمج الذوق ،
غير مصقول الطباع . وإذا لم أتخذ من الغلمان أسراباً وأسراباً
كما يفعلون ، نبزوني بأسوأ الصفات ، وأشنع الألقاب . فماذا
أصنع فى هؤلاء ، والفجور عندهم محمودة ، والسمو إلى معالى
الأمور كبر وغرور ؟ ولقد يذهب بى الفكر والهم أحياناً إلى

أن أعتزم الرحيل عنهم ، وقطع المفاوز دونهم ، فإنه لا يزال
في فسيح الأرض مضطرب للكريم الذي يطلب ما يعجز الطير
ورده ، ويتغنى ما هو أجل من أن يسمى .

دعاني منذ أيام أحمد بن نصر وزير سيف الدولة ، إلى
مجلس من مجالس أنسه ولهوه ، فأبيت وأبيت ، ولكنه أطل في
الرجاء وألحف ، فذهبت إلى داره كأنما أقاد إليها بالسلاسل .
وماذا رأيت ؟ رأيت طائفة من كبار المملكة ، بينهم أبو فراس
وأبو الحصين الرقي هذا الذي يزعم أن زهوى وإعجابي يمته في
اليوم ألف مرة ، ورأيت كثيراً من قواد الجيش ، وأدعياء
الشعر والأدب في هذه المدينة ، رأيتهم وقد لعبت الخمر برءوسهم
جميعاً ، فذهب عنهم العقل ، وطار منهم الحياء . وكان السقا
يطوفون بالأكواب ، فما مروا برجل إلا أفرغ كئوسهم في بطنه ،
وشرب شرب الهيم . وكانت الجوارى الروميات ، وهن في أجمل
زينتهن ، يرسلن شباكهن لصيد القلوب وإثارة التروات : بين
غمزة ساحرة ، وبسمة فاتنة ، وإنشاء لعطف ، واهتزاز لهد ،
وقبلات ترسل بالأكف ، وإشارات تعبث بالعقول ، وهمسات
أثبات ، وذعر مصطنع ، واستنكار مبتدع ، ودلال ينسي
الرجل عرضه ، وإغراء يوقظ الفتنة النائمة ، وقرب في تباعد ،
وتباعد في قرب ، وغضب في طيه رضاً ، ورضاً في غضونه
غضب . وقامت بين القوم راقصة تكاد تكون متجردة فذهبت
بالبقية من عقولهم ، وأخذت ما تركته الخمر فيهم . وزينت ،

النشوة لهذا الرقي قاضي حلب ، الذي يكره منى زهوى وإعجابى
 أن يقوم ويرقص بين تصفيق القوم ، وترديد الألحان ، وكان
 يُنشد أبياتاً عبث السكر بأوزانها ، ولعبت بنت الحان بقوافيها .
 أما أنا فلم أستطع البقاء ، فاتخذت من انصراف القوم إلى هوهم
 سترأ ، وخرجت أتلفت ورأى ، وأجمع من هذا الدنس أثوابى .
 ذلك هو الذى يريدنى هؤلاء المستهترون على أن أفعله ،
 وأن أشاركهم فيه ، وإلا كنت ثقیل الظل ، شائك الجانب ،
 غليظ القلب فظاً . لا يا صحابى إني خلقت من طينة غير طينتهم ،
 ورميت إلى غاية غير غايتهم ، وإذا كان لسانى لسان شاعر ،
 فإن قلبى قلب . . . ثم تردد قليلاً ، فقال المخزومى : قلب أسد؟
 فالتفت إليه المتنبي وقال : لا . كنت أريد كلمة أخرى ندعها
 الآن يا أبا الفرج . ثم أذن العصر ، فقام من حضر للصلاة ،
 وبقي المتنبي جالساً فى مكانه يقلب فى ديوان أبى تمام ، وكان على
 منصدة أمامه ، وكان يرسل إليه لمحات خاطفة ، فمرة يتسم
 احتقاراً ، وأخرى يهز رأسه استحساناً ، وثالثة يمد شففيه فى
 استنكار وسخط .

فلما قضيت الصلاة حياً القوم أبا الطيب وانصرفوا ، وبقي
 ابن سعيد قلقاً ينفخ من الهم والغضب ، فالتفت إليه أبو الطيب
 سائلاً :

— مالى أراك قلقاً يا أبا الحسن ؟

— لا شىء يا أخى ، إلا أنى سمعت اليوم حديثاً أطار

صَوَّأِي ، وضاعف من همِّي وحزني . فلقد علمت في هذا الصباح
أن القوم يأتُمرون بك ، وأنهم لم يتركوا في كنانتهم سهماً مسموماً
حتى رموك به . فخذ حذرك أبا الطيب ، إني لك من الناصحين .
— القوم يأتُمرون بي ؟ ! حيّاك الله وبياك يا أبا الحسن !

ولكن ليس هذا نبأ جديد . قل لهم ما قلته لغيرهم :
إني وإن لمت حاسداً فما أنكر أني عقوبة لهم
وكيف لا يُحسدُ امرؤُ علّم له على كل هامة قدم

— إن الأمر يا سيدي جدُّ وما هو بالهزل ، وإن أبا فراس
وشيعته أعظم من أن يستهان بأمرهم ، أو يفضّ الحديث عنهم
ببيتين من الشعر ، إنهم يكيّدون لك ، وينصبون لك الحبائل ،
ويعشون لك الضراء ، فحاربهم بسيوفهم ، واقتلهم بالسّم الذي
أعدوه لك . إن الفلسفة التي تسير بهديها ، والتي تستريح إليها
نفسك ، وتهداً بها هواجسك ، لن تغني في هذا الزمان قليلاً .
إننا يا سيدي نعيش في جوٍّ قائم بالدسائس ، مختنق بالفتن .
ومن خطل الرأي أن يخطو المرء في أرض تزدحم بالأفاعي وهو
لا يحمل ترياقاً ، أو يسير في مَسْبِعة وهو لا يستصحب الحذر .
لقد أزعج القوم إباؤك وشممك ، وتلك المشية المزهوة التي تكاد
تشم فيها عظمة الملك من أعطافك ، وتلك النظرات المتسامية
التي تعدّ من تحتها من الناس ذباباً أو نملاً . إن العظمة
يا أبا الطيب لا يراها الناس إلاّ تحت رداء من التواضع . والنبيل
معنى تدركه العقول ولا تبصره العيون . خض مع الناس فيما

ينخوضون ، ونخذهم كما يكونون ، واحتمل إذا وجدت الاحتياال
مطية لما آربك ، وبشش في وجوه قوم وقلبك يلعنهم .

— لا . لا . يا أبا الحسن . ذلك عهد ودعته منذ حين ،
فإن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً . ولن أفسد خلقي لفساد
أخلاق الناس ، ولن أضيع مروءتى بين ملق دنىء ، ونخداع
ونىء . أنت تريدنى على أن أقذف بأخلاقى ورجولتى فى التراب
لأرتدى ثوباً من الرياء مخرقاً . ولماذا ؟ لأن طائفة من السادرين
الأئمة الذين أعيش بينهم ، تؤلمهم رؤية الفضيلة ، ويؤذيهم أن
يعتز المرء بنفسه . لا يا أبا الحسن عرج على حديث آخر .
— ليس لى اليوم حديث إلا هذا ، فإن لى فىك اعتقاداً

أرسخ من الجبال . أعتقد أنك الشاعر الذى بعث على رأس
هذا القرن لينهض بالعرب ، وليغنى بمآثر العرب ، وليعيد مجد
دولة العرب . ولن أجد لك ميداناً بين دويلات الإسلام أوسع
من حلب ، ولا ملكاً يساير رنين شعرك صليل سيوفه إلا سيف
الدولة . إنه الملك الفذ الذى يقارع الروم ، وهم يتوثبون على
أطراف مملكته بعدد دهم وعديدهم فى صولة وقوة وشهوة للانتقام .
والحرب يا أبا الطيب لن تسير غازية ، فاتحة ، مظفرة إلا على
ألحان من الشعر الحماسى الذى يلهب الوجدان ، ويقذف
الرعب فى قلب الجبان . ولن يكون هذا الشعر إلا شعرك
يا ابن الحسين ، ولن تكون تلك النغمات السماوية إلا من
مزهرك المرنان . أنت لست ملك نفسك يا رجل . أنت ملك

العرب جميعاً ، أنت هبة الزمان الحديد الذى جاء ليصلح بك ما أفسده الزمان القديم . وإذا هجرت حاضرة سيف الدولة فأين تذهب؟ قد يُخَيَّل إليك أن تذهب إلى العراق ، ويا ويلي من العراق وتَعَسَى ! ! إنه الآن تحت سيطرة طغاة من الديلم ، وخليفتنا المطيع لله — فك الله أسرهم — يعيش الآن فى قفص يسمونه عرشاً ، بعد أن خلع الديلم ابن عمه المستكفى بالله وسملوا عينيه . وهو اليوم يجلس على سرير الملك كما يجلس القرد المذعور الذى تذهب عيناه يميناً وشمالاً أينما ذهبت عصا صاحبه . هذه هى بغداد التى كانت زينة الدنيا وبهجة الدهور ، أيام الرشيد والمأمون . وهناك الوزير المهلبى ، وقد جمع حوله حشالة الكتّاب ، وشذّاذ الشعراء الذين يرسلهم على أعدائه كما ترسل الكلاب المضرة فلا يتركون أديماً صحيحاً ، ولا عرضاً سليماً . هل تستطيع أن تعيش فى هذا الجحيم يا أبا الطيب ؟ وفى أى شيء تقول الشعر هناك ؟ فى الكأس والطاس والغواني والغلمان نعم ليس هناك مجال إلا هذا المجال القذر الدنس ، فليس هناك غزو ولا فتح ، حتى لقد صدّدت سيوفهم فى أغمارها ، إن كان لا يزال فى أغمارهم سيوف . ومن تظنّ سيكون من نظرائك وأندادك ؟ سيكون من هؤلاء ابن الحجاج الوقح ، وابن سكرة المفعش ، وابن لنكك السباب . لا يا سيدى ، إن رضيت بهذا فلز أرضاه لك . وقد يحول بخاطرك أن تذهب إلى مصر ، وإنى أربأ بك أن تفعل هذا ، وأن تجعل من نفسك عبداً للعبد

الأسود . ويا لتضيعة الشعر ، ويا لتضيعة الأدب إذا انحدرنا إلى هذه الهاوية ! قد تقول أذهب إلى فارس ، ولكن ثقتي بك تأتي على أن أتخيل أن مثلك يذهب هذا المذهب ، ويبيع عروبتة وتاريخه بثمن بخس ، دراهم معدودات . أنصت إلى يا أبا الطيب ، ليس لنبوغك مجال إلا في حلب ، وليس لعقود شعرك مكان أجمل ولا أشرف من جيد سيف الدولة . فأقم في ذراه ، واعتصم برضاه ، وجامل من حوله ، وكن فسيح الصدر ، واسع الحيلة ، واترك خلق الله في ملك الله .

— إني أحب سيف الدولة يا أبا الحسن ، أحب فيه شجاعته وإقدامه وكرم سجيته وصبره على الجهاد ، وأود أن أعيش في كنفه ، وأن أدفن في الأرض التي طهرها سيفه من رجس الغزاة المغيرين ، ولكن في حاشيته عصابة اتخذت من أي فراس زعيماً ، بغضت إلى حلب وملكها ، وحببت إلى الذهاب ثانية إلى الصحراء ، حيث كنت أعيش في طليعة شبابي مع جفافة الأعراب ، فما رأيت منهم إلا نجدة وعزة وأنفة عن كل ما يَشِين .

— إن أبا فراس هذا هو الذي جئت لأحدثك في شأنه اليوم . فتمد ملاً قلب سيف الدولة غيظاً منك وحقداً عليك ، وذكر له من تيهك وجبريتك وامتهانك لشأنه ما دفع سيف الدولة إلى أن يعقد العزم على سد بابك دونك . رآني اليوم مع نجا وهو يقرأ على بائيتك الأخيرة فصاح فينا غاضباً ، وأخذ

يرميك بكل قارعة ، ويصمك بكل قاصمة ، وينذر ويتوعد .
لذلك هرولت إليك مسرعاً حتى نرد كيد القوم في نحرهم ،
ونظفّر برضا سيف الدولة دونهم .

— وكيف نظفّر برضاه وهو على ما وصفت ؟

— إن سيف الدولة قلب دوار ، يكون الصبا ويكون
الدبور ، فهو في لحظة سيل هدّار العباب ، وفي أخرى صفحة
غدير سَجَسَج يتعثّر فوقه النسيم . هو الآن غضبان ولكنه إذا
سكت عنه الغضب عاد طفلاً غريراً يسهل اجتذابه ، ويسلس
قياده .

— دعني أرحل عنه بسلام يا أبا الحسن ، فإن النفوس إذا
تنافرت قلّ أن تعود إلى ودادها .

— هذا كلامكم معشر الشعراء ، ولكن النفوس تتنافر
ثم تتعانق ، ولا يصفو الود إلا بعد أن يخلص من الكدر .
— من الذي يخلص ودّ سيف الدولة من هذا الكدر ؟
— أخته خوّلة . فإنها مفتونة بشعرك ، كثيرة الإعجاب
بك . وهي ترى أن خزوجك من مملكة أخيها لا يقلّ عن
دخول الروم فيها . وسيف الدولة مشغوف بها حباً ، لا يردّها
كلمة ولا يخيب رجاء . فلو ألحّت عليه في أمرك ، لأحببت كيد
القوم ، وأعادتك إلى ما كنت فيه من المنزلة والكرامة .

— افعل ما تشاء يا أبا الحسن . ولو خُيرتُ ما اخترت .

— إني سأختار لك . فلا يكن في صدرك حرج . وسأمرّ

على دارك غداً بالخبر اليقين .
 فلما جاء الغد أسرع أبو الحسن بن سعيد إلى دار المتنبي ،
 فلم يجده ورأى ابنه مُحَسَّدًا فقال له : قل لأبيك يا محسد : إن
 الأمير يبلغه تحيته تحيته ورضاه ، ويودّ أن يقابله في قاعة
 الرسل في صبيحة غد ، ليستمع لإنشاد القصيدة الجديدة . وقل
 له إنّ الجمع سيكون حاشداً ، عم مساءً يا محسد . ثم بلغه
 عنى ألا ينسى قوله :
 ومن نكذ الدنيا على الحرّ أن يرى
 عدواً له ما من صداقته بدّ

صراع

عاد المتنبي إلى داره حزيناً مثقلاً بالهموم والأوجال ، يهزّ
 رأسه صامتاً مطرقاً . فابتدره محسد وألقى إليه رسالة أبي الحسن
 لم يخبر منها حرفاً . فالتفت إليه أبوه في ثقيل وقال :
 — إذا سيكون الموعد غداً ؟
 — نعم يا أبي وهو يقول إن الجمع سيكون حاشداً .
 — إنه يوم الفصل يا محسد ، وسيعلمون غداً من السباق
 المبرز .

تمرّست بالآفات حتى تركتها
 تقول أمات الموت ، أم ذُعر الذُعر ؟
 وأقبل مسعود فقال : إن العشاء قد أعدّ يا سيدي .

— ليس لي في الطعام من أرب الليلة يا مسعود . أوقد الشموع في حجرة نومي ، وأعدّ بجانبها شموعاً أخرى ، فقد يطول لي السهاد في هذه الليلة الليلية ؛ وأحضر أقلاماً وأوراقاً ودواة بجانب سريري . أسرع يا مسعود ، فإن مجد سيدك الليلة في ميزان القدر . فأسرع العبد ينجز ما أمر به ، وتخفف المتنبى من بعض أثوابه ، وهو يتمم : غداً سيرون ! غداً سيكون لي معهم ومع أميرهم شأن أي شأن ! غداً يعلمون أني كالحجاج ابن يوسف لا يقع لي بالشنان ، ولا يغمر جانبي كتغماز التين ، وغداً يستيقنون أن الشعر إذا تنفست به نفس جريئة ، كان ملكاً على الملوك ، وأميراً على الأمراء . من هؤلاء ليت شعري ومن آباؤهم ؟ كان آباؤهم زعماء طائفة من فتاكى العرب ، أغاروا على أطراف الخلافة ، وهي تترنح للسقوط ، فزقوا أشلاءها ، واقتطعوا لأنفسهم منها طرقاتاً ، وأصبحوا في طرفة عين ملوكاً لهم عرش وصوبلخان ، وجند وسلطان . ولم لا أوطد ملكاً كما وطّدوا ؟ وأشيّد مجداً مغتصباً كما شيدوا ، ما دام الأمر للقوة ، والحكم لأطراف الأسنة ؟ ثم أطرق حزينا وهز رأسه في ألم وحسرة وقال : ولكن هؤلاء لهم عشيرة وعصبة ، ولهم أعوان وأحلاف في القبائل ، ولهم في الرياسة مجد قديم . أما أنا فقد أظمتني الدنيا فلما جئتُها . مستسقياً مطرت على مصائبها ثم زفر وقال : نعم يا أبا الطيب لقد قسى عليك القدر ، فأنشأك في أسرة خاملة النسب ، تجاهد بجذع الأنف أن

ينساها الناس ، وأن ينسوا اتصالك بها . وليس لك غير عزيمتك
وسيفك وشعرك من عشير أو قبيل . فأين أنت من المطالب
العظام والمقاصد الجسام؟ نعم . لقد قسا عليك القدر ، فخلق لك
نفساً شامخةً تواقّةً غلابةً طمّاحةً إلى الملك . ولم يخلق لك من
آلات العظمة والملك ما يصل بك إلى أدنى هذه الغايات . هذا
هو دأب القدر دائماً ، يضع السيف في يد من لا يستطيع
حملة ، ويذهب المال لمن لا يحسن تدبيره ، ويكيل الحمد والثناء
لمن لا يفهم معنى الحمد والثناء !

جلس المتنبي أمام منضدته ، ومد يده إلى القلم وأطرق
طويلاً يفكر في ابتداء القصيدة . فجألاً بخاطره أن يقول :
نقل الواشي حديثاً فكذبُ كن مجيرى منه يا خير العرب
ولكنه هز رأسه هزاً عنيفاً وقال : لا . لا . هذا مطلع يدل
على ضعف نفسي ، وإهتامي بالوشاة . ثم إن تسمية سيف الدولة
في أول القصيدة بخير العرب إغراق فاضح ، وسرف في المديح
لا يصح أن يعطى في جرعة واحدة . وعدل عن هذا المطلع ،
وأخذ يفكر في مطلع آخر فعرض له أن يقول :
غال بعض الحب عدل العاذل

ومضى الباقي بمطل الماطل

غير أنه مد شفته السفلى استنكاراً ، وقال : لا . لن
يصلح هذا مطلعاً فإن فيه إيغالا في القطيعة ، ومصارحة
بالحفاء . وإذا اغتال العذل بعض الحب ، وذهب مطل الحبيب

بباقيه ، فماذا يبقى منه للرجل ؟ وماذا أرجو عنده بعد أن كاشفته بانقطاع حبل الود بيننا ؟ ثم فكر قليلا وصاح في اهتمام : لقد وجدت المطلع . لقد وجدته . هذا هو :

واحرَّ قلباه ممَّن قلبه شَبَّيمُ ومَن بجسمي وحالي عنده سَقَمُ
ثم وقف وأخذ يحول في أنحاء الحجرة ، وهو يهمهم ويزجر زجرة النمر الجريح . وكلما حام حوله طائر الشعر أطرق وزمزم حتى يلتقطه فيسرع إلى أوراقه فيدون البيت أو البيتين . وكان من يراه وهو يذرع أرض الحجرة شاخص العينين ، يلوح بذراعيه أحيانا ، ويضرب بقدميه الأرض أحيانا ، ويتحدث إلى الشموع والحيطان أحيانا ، يظنه مجنونا ذهب عقله وطار لبّه . فرغ المتنبي من قصيدته قبل أن تظهر خيوط الصباح ، فطوى أوراقه وألقى بنفسه على سريره ، ولكن هيهات لمثله أن ينام ! فلما شاع نور الشمس في الأفق ، تناول نزرًا من الطعام ، ثم ارتدى ملابسه ، وأمر مسعوداً بإعداد جواده . ولما هم بالركوب رأى أبا الحسن بن سعيد في انتظاره ، فابتدره ابن سعيد :

— هل أتممت القصيدة ؟

— نعم أتممت قاصمة الظهر ، وقارعة الأبد .

— أرجو ألا تقسو فيها على أعدائك يا أبا الطيب .

— ليكن ما يكون .

ولما بلغا قصر سيف الدولة ، نزل أبو الطيب عن جواده

فتلقاه نجا في بشر وترحاب ، وهمس في أذنه قائلاً : اليوم
يومك يا أبا الطيب . فإن أعداءك هنا جميعاً ، وقد جمعوا
مكرهم ، وألقوا حبالهم وعصيهم . فهز المتنبي كتفه في تيه وقال :
إن هؤلاء لا يهزون شعرة من مفرق :

أنا الذي بين الإله به الآق دار والمرء حيثما جعله
جوهرة تفرح الشيراف به وغصة لا تُسيغها السفله

ودخل المتنبي قاعة الرسل ، فرأى سيف الدولة في صدر
الإيوان ، وحوله الوزراء والفقهاء ورجال العلم والأدب ، وكان
بالمجلس عدد عديد من أعداء المتنبي بينهم الزاهي والنامي
وأبو الفرج السامري . وكان على رأس هؤلاء أبو فراس وأبو
العشائر ، وقد أخذوا ينظران ذات اليمين وذات الشمال في قلق
واضطراب .

دخل المتنبي فسلم على الأمير مطأطئ الرأس حزينا ، ورد
سيف الدولة تحيته مدلاً عابساً ، وسكت الجميع ، وتحفّز
أعداء أبي الطيب للوثوب ، فشرع ينشد حتى إذا بلغ قوله :
مالي أكنم حباً قد برى جسدي وتدعى حب سيف الدولة الأهم ؟

صاح به أبو الفرج السامري : ويلك يا دعي كنده . لقد
هجوت الأمير ، لأنك تزعم أن الناس جميعاً لا يحبونه إلا
ادعاء ، وأنت وحدك الذي يحبه حباً صادقاً ، وهل هذا إلا هجو
صراح ؟ فانصرف عنه أبو الطيب غير مكترث ، واستمر في
الإنشاد فلما قال :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي
 فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
 قال أبو فراس : قد مسحت قول دعبيل :
 ولست أرجو انتصافاً منك ما ذرفت
 عيني دموعاً ، وأنت الخصم والحكم
 فقال المتنبي وهو ينظر إلى الأمير ويشير إلى أبي فراس :
 أعيذها نظرات منك صادقة
 أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
 فعلم أبو فراس أنه يعنيه ، فقال : ومن أنت يا ابن عبدان
 حتى تأخذ أعراض أهل الأمير في مجلسه ؟ فواصل المتنبي إنشاده
 ولم يلق إليه أذنًا إلى أن قال :
 سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأنني خير من تسعني به قدم
 أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
 فزاد ذلك في غيظ أبي فراس وقال : قد سرقت هذا من
 عمرو بن عروة بن العبد إذ يقول :
 أوضحت من طرُق الآداب ما اشتكلت
 دهرًا وأظهرت إغرابًا وإبداعًا
 حتى فتحت بإعجاز خصصت به
 للعمى والصم أبصارًا وأسماعًا
 ولما انتهى إلى قوله :

الخيْلُ والليْسُ والبيداءُ تعرفني
والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ
صاح أبو فراس : وماذا أبقيتَ للأمير إذا وصفتَ نفسك
بكل هذا ؟ تمدح الأمير وتبجح بوصف نفسك بما تسرقه من
كلام غيرك ؟ أما سرقت هذا من الهيثم بن الأسود النخعي ؟
أنا ابن الفلا والطعن والضرب والسري
وجرد المذاكي والقنسا والقواضب
فقال المتنبي :

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره
إذا استوت عنده الأنوارُ والظلم
فقال أبو فراس : وهذا أيضاً سرقة من قول العجلي :
إذا لم أُمَيِّز بين نور وظلمة بعيني فالعينان زورٌ وباطلٌ
ومن قول محمد بن أحمد المكي :
إذا المرء لم يُدرك بعينه ما يرى
فما الفرقُ بين العمى والبصراء ؟

وهنا ضَجَر سيف الدلة من كثرة مباهاة المتنبي بنفسه ،
وكثرة دعاويه ، فهد يده إلى دواة كانت أمامه ، فضرب بها
المتنبي فسال المداد على ثيابه . ولكن المتنبي وقف شامخ الرأس
كأن لم يمس بأذى ، وشرع يقول :
إن كان سرّكم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم
فاهتز سيف الدولة للبيت ، وحسن عنده موقعه ، وقام

مهرولاً نحو المتنبي يعانقه ، ويقبل رأسه ، وأخذ يشده من ذراعه حتى أجلسه بجانبه . فلما أتم أبو الطيب القصيدة وهو جالس ، أجازته بألف دينار ، ثم أردفها بألف أخرى ، استعادة لمودته وإعلاء منزلته . والناس مع الزمان ، والإقبال يجلب الإقبال ، فما كاد يرى من بالمجلس فعل سيف الدولة حتى أقبلوا على المتنبي يكيلون له المديح ، ويخلعون عليه من الثناء حللاً ، ويشيدون بعبقريته ، ويحمدون فيه الإباء والشمم والجرأة على ممدوحه ، وأنه يرفع فنه إلى قمة دونها منازل الملوك ، ويضع نفسه حيث يجب أن تكون . وقال له أبو الحصين الرقي وهو يشد على يده : حياك الله يا أبا الطيب ! لقد كنت اليوم الفارس المعلم فلم تدع مصالاً لصائل ، ولقد كان نصرك مبيناً مؤزراً ، فاحرص على هذا الانتصار يا أبا محمد ، فقد يكبو الجواد وقد قارب القصب ! فرد عليه المتنبي بكلمات ضاعت معانيها بين صيحات المعجبين . أما أبو فراس وأبو العشائر وأنصارهما من آل حمدان فقد حبست الهزيمة ألسنتهم ، وأكل الغيظ قلوبهم فتسللوا من المجلس ، وفي أعينهم لمحات الغضب والحقد والعزم على الانتقام ، لما نالهم من احتقار المتنبي وتعريضه بهم في قصيدته .

وما كاد أبو الطيب بعد خروجه من القصر يصل إلى ظاهر المدينة ، حتى أحاط به غلمان أبي العشائر ونفوسهم متعطشة إلى دمه ، فرماه أحدهم بسهم وهو يقول : نخذه وأنا غلام أبي

العشائر! فجاد عنه السهم، ووكر أبو الطيب جواده وهو يقول:
ومنتسبٍ عندى إلى من أحبه

وللنبيل حولي من يديه حفيفٌ
فهيج من شوقي. وما من مدلة

حننت ، ولكن الكريم ألوف
وكلُّ ودادٍ لا يدوم على الأذى

دوام ودادى للحسين ضعيف
فإن يكن الفعل الذى ساء واحداً

فأفعاله اللأى سررن ألوف
ونفسى له ، نفسى الفداء لنفسه

ولكن بعض المالكين عنيف
فإن كان يبغى قتلها يك قاتلاً

بكفيه ، فالقتل الشريفُ شريف

وبلغ المتنبى داره وقد نال منه الجهد ، واضطرب منه
العصب ، فارتقى فوق سريريه يلهث ويردد أنفاسه . وقد جالت
فى نفسه خواطر متباينة ، وهجمت عليه ظنون متناقضة . هؤلاء
الغلمة الذين طلبوا دمه إنما هم عن قوس ساداتهم رموا ، وبأيديهم
راشوا السهام . نعم إنه انتصر عليهم عند سيف الدولة اليوم ولكن
هل يدوم هذا النصر ، وحوله هؤلاء الذئاب ، وهو يخطو فوق
أرض كثيرة المزالق والأخاديد ؟ إنه انتصر حقاً ولكن هذا النصر
قد يكون حافزاً لأعدائه على الإسراع بالكيد له ، وإحكام

الخطّة لدفعه في الهاوية . إنه انتصار يجر في ذيله الهزيمة . انتصار المصادقة الذي يعقبه انهزام تنصب شباكه الدسائس المحكمة ، والمكر الخبيث ، والغلمان الفتاكون الذين يرسلون سهامهم في غبش الظلام . وهل يستطيع أن يركن إلى سيف الدولة أو يثق بنصرته ، وهو كما قال أبو الحسن رجل من هواء لا يدوم على حال . يملكه الغضب حيناً فيرتد شيطاناً رجماً ، ويجتذبه الرضا بخيط من خيوط العنكبوت فيصبح ملكاً كريماً . وكيف يعيش شاعر غرّد في هذا البحر القلق المضطرب ؟ إني أؤثر أن أعيش في عرين الأسد ، وأرقد بين الحيات السود ، وأنام في مجارى السيول ، على أن أعيش بين سموم هذه الأحقاد يوماً واحداً . غداً أرحل إلى أى مكان على رغم يقيني من أنى لن أجد لسيف الدولة مثيلاً بين الأمراء ، ولكن ماذا أفعل والجنة تحف دائماً بالمكاره ، والورد لا ينحى إلا من الشوك ؟ غداً أرحل إلى دمشق ، ويفعل الله ما يشاء . يا محسد . فأسرع ابنه إلى ندائه ، ووقف يتلقى أمره ، فطلب منه أن يأمر العبيد بإعداد كل شيء للرحيل في الغد ، ورأى أبو الطيب في وجه ابنه سمات التردد والعجب فصاح به : أطع ما أمرك به ولا تعوّق . فقال محسد في تلّغم : — إني في الحق في حيرة من هذا الأمر المفاجئ . لقد كان فوزك اليوم على أعدائك فوزاً حاسماً ، وكان إقبال الأمير عليك واعترافه بسمو منزلتك حادثاً فذاً لم يسجل له الدهر مثيلاً في تاريخ الملوك والشعراء . ثم بعد هذا يخطر لك أن ترحل عن

هذا الجاه العريض ، والمرتبة التي تتقطع دونها أعناق الشعراء !
 — مر العبيد أن يعدوا كل شيء ، ولا تخاطبني في شأن
 الأمير . اذهب .

فخرج محمد مبتثاقلاً والدهش يملك عليه لبه ، فأمر
 مسعوداً بالاستعداد للرحيل .

وما كاد يلمع أول شعاع للصباح حتى وصل فارس يلهث
 جواده إلى دار أبي الطيب ، وطلب لقاءه فأدخل عليه . فقال الفارس :
 — إني خادم سيدتي خولة أخت الأمير ، وقد بعثتني
 برسالة إليك .

— سيدتي خولة ؟ تبعث إلى برسالة ؟ أين هي ؟
 — ها هي ذى يا سيدى . ومد يده في كمه فأخرج منه
 كيساً من الحرير الأخضر خيطة جوانبه حول الرسالة ، ففحص
 المتنبي الكيس وأخرج الرسالة فكان فيها :

من خولة بنت عبد الله بن حمدان إلى أبي الطيب أحمد
 ابن الحسين . أما بعد ، فقد كانت قصيدتك التي أنشدتها اليوم
 آية بينة من آيات البيان ، جديرة بأن تعلق على أستار الزمان ،
 وأن يردد قوافيها الملوان . قرأها على الليلة أبو الحسن بن سعيد
 وشرح لي ما حدث من مقاطعة أبي فراس لك ، وتحديه إياك ،
 وما كان من انتصارك عليه . وما كاد يتم سرورنا حتى فوجئنا
 بتعرض غلمان أبي العشائر لك في الطريق ، فغضب أخى أشد
 الغضب وبعث في طلب أبي العشائر ، فلما جاء تلقاه ساخطاً

لاعناً ، واعتذر أبو العشائر وأطال الاعتذار ، وأقسم إن شيئاً من ذلك لم يكن بإشارته ولا بعلمه . ولم يخرج من لدنه حتى كتب أمراً بنفى هؤلاء الغلمان جميعاً إلى الموصل ؛ وقد جال بنفسى أن هذا الحادث قد يحفزك إلى الرحيل عنا ؛ بعد أن كنت متردداً . فأستحلفك بالله وبمجد العرب وبما تكن لأخى من مودة ألا تفعل . لا ترحل يا أبا الطيب فإن الدولة فى أشد الحاجة إليك . أنت قلبها النابض ، وزندها المفتول ، وجيشها الذى لا يصابول . لا ترحل يا أبا الطيب واستمع لرجاء فتاة تقدر أدبك وفضلك . إن الدولة من غير أن يتردد فيها نغم شعرك كنانة بلا سهام ، ودوحة بلا بلابل ، والسلام عليك فى الخالدين .

قرأ المتنبي الرسالة ثم أطرق واجماً مفكراً ينكت الأرض بعصاً كانت فى يده . ثم رفع رأسه وكأنما أفاق من غمّة فقال للرسول : قبل يد مولاتى وقل لها : إن العبد لا يأتى ما أحسن به سيده . وإن طائرهما سيظل رفاتاً غرداً ما بعد عنه حفيف السهام ، وإن الشعر لن يعصى أمراً لسيدة نساء « تغلب » ولا يرد كلمة مرت بأطهر شفتين ، ونطق بها أصدق لسان .

وبقى المتنبي فى كنف سيف الدولة بعد ذلك قرابة خمس سنين ، بين سخط ورضاً وعتب وإعتاب ، وتجن وإدلال . وحضر بعض مواقع الروم مع سيف الدولة فأجاد وصفها ، وشدا ببطولة رجالها ، فملأ الدنيا ، وشغل الناس ، وطار شعره فى الآفاق ورددته الأفواه فى كل مكان :

فسار به من لا يسير مشمرا . وغنى به من لا يغنى مغردا
ولما طال به المقام كثر حساده ، ومل سيف الدولة تيهه
وكبرياءه وضنه عليه بالمديح ، فازدادت بينهم الجفوة ، ولم يجد
أعداء المتنبي باباً للنكاية به إلا وبلحوه . وحينما ضاق المتنبي بأمرهم
فكر في الرحيل ، وكأنه كان ينظر بين الغيب حقاً حينما قال
في آخر قصيدة أنشدها بين يدي سيف الدولة :
ولا تبال بشعر بعد شاعره

قد أفسد القول حتى أحميد الصمم
وبلغ سخطه على سيف الدولة غايته حينما حضر مجلسه
مرة ، وكان به أبو الطيب اللغوى وأبو عبد الله بن خالوية
النحوى فجاء فى عرض الحديث بيت المتنبي :
لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالיום أقحم حتى لات مقتحم
فقال ابن خالوية : فى هذا البيت لحن شنيع ، لأن «لات»
لا تجر ما بعدها ، إذ ليست هى من حروف الجر . فقال
أبو الطيب اللغوى : إن بعض العرب يجر الاسم بعدها ، فأنكر
عليه ابن خالويه ذلك ، فنهزه المتنبي فى غضب وقال : اسكت
فما أنت إلا أعجمى لا يفهم أساليب اللغة ، فإن من العرب من
يجر الاسم بعد «لات» ، قال شاعرهم :

طلبوا صلاحتنا ولات أوان فأجبنا أن ليس حين بقاء
فغضب ابن خالويه ، وأخرج من كفه مفتاحاً من حديد ،
فصك به المتنبي فى وجهه ، فأسال دمه . فنظر أبو الطيب حوله

فلم ير من سيف الدولة استنكاراً ولا أسفاً ، فخرج من عنده
كالبعير الصائل ، وقد عزم ألا يكون ثالث الأذليين غير
الحى ووتده ، وجعل يردد :

فلا عبرت بي ساعة لا تُعزنى

ولا صحبتنى مهجة تقبل الظلما

رحيل

لزم المتنبي داره أياماً يفكر ويدبّر ، ويبحث عن طريق
للفرار من حلب ، وهو يعلم أن سيف الدولة سيسدّ دونه المنافذ
ويسأل عنه القلوات ، وأنه سيرسل جواسيسه فى كل مكان
يتعقبون خطواته ، ويترسمون آثاره . فكر أولاً فى الذهاب إلى
حمص ولكنه رأى أنها من أملاك سيف الدولة ، وأن الفرار من
حلب إليها ليس إلا كما ينتقل الطائر الحبيس فى قفصه من
ركن إلى ركن . ثم فكر فى أن يصارح سيف الدولة بأن ثواه
طال فى حلب وأنه يعتزم الرحيل عنها ، وأن ينشئ قصيدة فريدة
فى مدحه وتوديعه ، ولكنه رأى بعد طول التفكير وتقلب الرأى
أن سيف الدولة لم يصل به البله إلى أن يطلق من يديه شاعراً
تتنافس فى احتيازه ملوك الأرض . يرسله من يديه ليغنى بمجده
منافسيه ويطلق لسانه المر بهجائه والإزراء بملكه . إنه إن صارح
سيف الدولة بهذا فليس لذلك من عاقبة إلا أن يعتقله وينكل
به ، ويقضى على آماله الجسام .

فكر المتنبي طويلاً ودبر طويلاً ، حتى هداه التفكير إلى أن يتحين غفلة من الأمير ويفرّ إلى دمشق . فأظهر الود لسيف الدولة ، وأكثر من زيارته ، ثم التمس منه أن يأذن له بالسفر إلى إقطاعه « بمعرة النعمان » فأذن له . وما كاد يظفر أبو الطيب بهذا الإذن حتى أسرع إلى داره ، وكان قد أعدّ عدته للرحيل منذ أيام ، فدعا ابنه محمّداً وعبيده مسعوداً وأنبأهما بأن يحملا إلى دمشق في خفية وحذر ما خف من متاعه على ظهور الجياد ، وأنه سيلحق بهما إذا خفّضت عنه العيون ، ونام عنه الرقباء . فامتثلا الأمر ، ولم تمض ساعات حتى كانا في طريق دمشق ينهران الأرض في صمت ورعب ووجل .

أما أبو الطيب فانتظر إلى الهزيع الأخير من الليل ، ثم خرج متسللاً ينظر في الظلام ، فلا يرى إلا أشباح الظلام ، ويصغى فلا يسمع إلا دقات قلبه الواجف الحزين . حتى إذا وثق أن عيناً لا تنظر ، وأن أذنّاً لا تسمع ، انطلق كما ينطلق السهم ، وانقضّ كما ينقضّ القدر المحتوم . ولفه الليل كأنه طيف نائم ، أو خيال شاعر ، أو كما يقول :

وكتت إذا يمت أرضاً بعيدة سرّيت فكنت السرّ والليل كاتمهُ

ولم يمتنع به النهار حتى جاوز أملاك سيف الدولة ، فاطمأنت نفسه قليلاً . ولكن الفكر عاوده ، والأمل الحائر ساوره : إنه قادم إلى دمشق . ماذا يفعل بها ؟ هل هي خاتمة المطاف ؟ هل انتهى به الطموح إلى أن يلتقي بنبوغه في مدينة يحكمها رجل من

قبل كافور؟ إنه أسمى منزلة وأعلى كعباً من أن يخص بمدحه خليفة أو ملكاً ، فهل ينتهى به الأمر إلى أن يكون ذيلًا في حاشية وال ليس في العير ولا في النفير؟ إنه كان في طبيعة أمره يمدح أمثال هذا الوالى ومن هم دونه . ولكن هيهات ! هيهات ! لقد تغيرت الحال وتبدل الأمر ، وأصبح لا يرجو المال وقد نال منه كثيراً . ولكنه يطلب الآن ما هو أعظم من المال ، وما هو أبقي من المال . ماذا يعمل في دمشق؟ سؤال لم يستطع عنه جواباً بعد أن رده ورددته . حتى إذا يثس ، ألقى لفرسه العنان ، وعول على أن يترك الليالى تلد بما تشاء من عجائب .

بلغ المتنبي دمشق ، فاتجه بجواده نحو دار أئى الحسن المشوق الشاعر ، وكانت له به صداقة على قلة أصدقاء المتنبي وخلصائه . وكان أبو الحسن يزور حلب كثيراً ، وكان مولعاً بشعر المتنبي ، كثير الإعجاب به ، حتى سماه أدباء عصره بصاحب المتنبي . وكثيراً ما دعاه أن يزوره بدمشق ، فلم يفكر المتنبي — حينما عزم على الرحيل إلى دمشق — إلا في أن يكون ضيفه ، حتى يبيت في مصيره برأى .

نزل المتنبي أمام دار أئى الحسن ، وكانت في سفح قاسيون ، فتلقيه صاحب الدار مرحباً ، وقد كاد الدهش يعقد لسانه ، والفرح يطير بصوابه . ثم قال :

— أهلاً بأمير الشعر وفارس البيان ، ومحبي ما درس من لغة العرب . من كان يظن أن دارى هذه ، ستظل أكبر شاعر

تتراجع الملوك على عتبات شعره ؟ !
 — إن الملوك الآن لا يتزاحمون يا أبا الحسن ، ولكن الشعراء
 الذين أرخصوا مواهبهم ونزلوا بقضهم إلى الحضيض ، هم الذين
 يتزاحمون على عتبات الملوك .

— هؤلاء يا سيدى ليسوا شعراء . وسيف الدولة يعرفهم
 واحداً واحداً ، ولا يقيم لهم وزناً إلى جانب شاعره المخلّق ، الذى
 ينطق بوحى الحكمة ، ويرسل الأوابد التى تعيا بأمثالها العقول
 — إن سيف الدولة ليس الآن كما تعهد يا أبا الحسن . إنه
 قد غيّرته علينا الغير .

— غيرته الغير ؟ سيف الدولة ؟ أكرم ملك عربى وأعظم
 مقدّر لعقول الرجال ؟ !

— نعم يا أبا الحسن . وأنا الآن حرّ طليق . وكثيراً ما خطر
 لى أن أهجر الشعر وأستنجد بسيفى ورمحى ، لنيل مطلبى .

فوجم الممشوق ، وهز رأسه فى أسى وحزن ثم قال : إن مثلك
 لا يستطيع أن يهجر الشعر . إنه مزاج روحك ، وقطرات دمك .
 إن الطير لا تستطيع إلا أن تغرد ، والمزهر لا يستطيع إلا أن
 يزهر . وإذا تركت الشعر فإنه لا يتركك أو تتركك أنفاس الحياة .
 حدثنى أبا الطيب بما جرى بينك وبين سيف الدولة . فقص
 عليه أبو الطيب قصته ، ولوّثها بكثير من وساوس عواطفه ،
 وتهاويل خياله . فقال الممشوق :

— وماذا عزمت أن تفعل يا ابن أخى ؟

— لم أعقد عزمًا لأني وجهت كل همي إلى الفرار من سيف الدولة أولاً . أما ما يكون بعد ذلك ، فتركته لتصاريف القدر .
— طب نفساً أبا الطيب ، فلن يكون إلا الخير .

وشاع الأمر في المدينة ، ولغظت الأفواه بقدم المتنبي إلى دمشق ، وأسرع الشعراء والأدباء والعلماء إلى لقائه بدار الممشوق . فكان بين زواره من أعظم الشعراء : أحمد بن محمد الطائي ، ومن كبار العلماء : عبد الرازق الأنطاكي مقرئ أهل الشام ، وأحمد الغساني النحوي ، وعبد الله المقرئ ، وكان يحفظ خمسين ألف بيت من أشعار العرب .

وكان المتنبي على جفوته ونفرتة يصطنع البشاشة لزواره ، ويتسع صدره لهدرهم . فقد عرف أن بقاءه في دمشق معقود برضا كبار أدبائها عنه ، وتقديرهم لأدبه وخلقه .

وسمع ابن ملك اليهودي — وكان عاملاً على بخراج الشام من قبل كافور — بفرار المتنبي ، فأرسل رسالة إلى مصر على جناح طائر ، يخبر فيها كافوراً بوصول المتنبي إلى دمشق فلم يمض إلا ثلاثة أيام حتى وصل إليه جواب من كافور ، يلح فيه بأن يعمل كل ما . مكنته لإغراء أبي الطيب بالقدوم إلى مصر ، وأن يبذل له ما شاء من رغائب .

وحينما علم عبيد الله بن طغج ، وإلى دمشق من قبل الإخشيا بمقدمه أرسل إليه أحد كبار حاشيته يدعوه إلى قصره ، ويلح في أن ينزل في ضيافته . فرأى المتنبي أن من الحكمة ومسايرة

الأمور ، أن يلي الدعوة شاكراً . فانتقل إلى قصر الوالى الذى بالغ فى إكرامه والحفاوة به ، والإغداق عليه .
 وكان مجلس الوالى يجمع فى كل ليلة كبار القواد والعلماء والأدباء . وكان المتنبي فارس الحلبة فى هذا المجلس ، وملتقى العيون ، وموضع الإكبار ، فقال الوالى ذات ليلة موجهاً الحديث إلى أبى الطيب : لم أر أبلغ فى تصوير الظفر والانتصار من قولك فى سيف الدولة :

وكم رجالٍ بلا أرضٍ لكثرتهم

تركتَ جمعهم أرضاً بلا رجل

فأطرق المتنبي شأن من تعزف نفسه عن أن يسمع مديحه بأذنه ، وانطلق الأدباء يبينون ما فى البيت من بديع الوصف ، ورائع الخيال . وقال الوالى :

— إن الذى يُمدح بهذا خليق بأن يخلّده الزمان .

وانبرى الطائى يقول : ما دام بيننا أبو الطيب ، فلن نحرم سماع مثل هذه الكلام البواقى فى رجال دولتنا . وأسرع الوالى فقال فى خبث واحتيال :

— هذا إذا رأى أبو الطيب فى رجالنا ما يثير شعره ، ويحفز شيطانه . إني حضرت كثيراً من الوقائع ، وهزمت كثيراً من الجيوش ، ولكن كل ذلك ذهب فى الهواء ، لأن شاعراً مثل أبى الطيب ، لم يقل فى مثل هذا البيت !

وهنا اتجهت أنظار الجمع إلى المتنبي ، كأنهم يقولون بلغة

العيون : لم يبق إلا أن تسرع إلى إجابة الطلب ، فقد نثر الصائد الحب ووقع الطائر في الشرك ، فليس له من مناص . وبُهِت المتنبى لهذه المفاجأة ، وتمم بكلمات مبهمة قد يفهم منها الرضا ، وقد يفهم منها الإباء . وتقضى بعض الليل وانصرف السامرون إلى دورهم .

وانفرد المتنبى في مثواه وقد تراحمت عليه الهموم ، وانتابته الحيرة ، واستبد به القلق . هذا الوالى يريد أن يمدح بمثل ما مدح به سيف الدولة سيّد العرب ! يا للهول ، ويا للداهية الداهية ! إن من سخرية القدر وأصاحيك الزمان أن يفرّ المتنبى من مدح سيف الدولة ، العربي المجاهد ، المبسوط اليد ، الرحب الفناء — ليرغم على مدح ذلك الأعجمى الحقير ، الذى لا يقاس بشسع نعل ابن حمدان ! ماذا جرى لهذا الفلك الدوار ، وماذا أصاب أعين الأقدار ، حتى تُنزل أبا الطيب هذا المنزل المهين ، وتسلكه فى سلك صغار الشعراء الذين يمدحون كل من شموا فى يديه رائحة درهم ؟ ! لا إنه لن يهوى إلى هذا الدرك ، ولن يقذف بنفسه فى تلك الهاوية . لقد أنف من البقاء بحلب — وكان فيها رفيع المنزلة معروف المكانة — لأن ابن حمدان كان يتعالى عليه أحياناً ، وينظر إليه نظرة الأمير للشاعر . فكيف يستطيع أن يبقى بدمشق شاعراً مغموراً لوال مغمور ؟ ! لا . لا . إنه لم يخلق لأمثال هؤلاء . إنه خلق لتصغر فى عينه العظام ، « وليترك فى الدنيا دويّاً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر » وماذا

هو فاعل إذا ؟ ليس أمامه إلا أن يرحل ، وإلا أن يفر بنفسه من هذا الهوان . وإلى أين ؟ قاتل الله هذا السؤال ! إنه يفجأه دائماً حين لا يجد له جواباً . يرحل إلى بلاد الله ، ويتزل حيث يجد العزة والعظمة والكرامة . . . ليس شيء أيسر من هذا . وبينما هو في هذا البحر المضطرب من الأفكار ، إذا عبده مسعود يدخل الحجرة في هدوء ويقول :

— إن ابن ملك يطلب مقابلة سيدي .

— ابن ملك ؟ من ابن ملك ؟ نعم نعم . لقد تذكرت . دعه يدخل .

وكان ابن ملك قصير القامة ، نحيف الجسم ، يلوح لمن يراه أنه في سن الأربعين أو جاوزها قليلاً . له عينان يسيل دمعهما من علة ملازمة ، وقد احمرَّت جفونهما . وأنف ضخمة ، ووجه طويل تعلوه صفرة كدرة . ولحية تغزر عند الدقن ، وتخف إلى أن تنمحي في العارضين . وكان قدر المألابس ، زرى البزة ، له عمامة سوداء ، أرسل منها ذؤابتين من شعره تسيلان فوق صدغية . دخل ابن ملك فسلم على المتنبى ثم قال :

— لقد زهيت الشام بزيارتك يا ابن الحسين . إن صوتك الرنّان سوف يسكت أطيار غوطة دمشق ، وإن مصر وهي من أقوى دول العرب ستسير من ظفر إلى ظفر ، طروباً مهتزة بأنغام شعرك ، الذي يبعث فيها القوة والعزيمة وحب الغلب .

— لقد حسن ظنك بنا يا ابن ملك ، ولكننا قوم لا نقول

حتى نرى ، ولا نشيد بمكرمة أو نشي على فضل ، حتى يمل
علينا فنكتب .

— هذا حق ، وهذا هو الذى يصل بشعرك إلى قرارة القلوب ،
وهذا أيضاً هو الذى حفزنى إلى زيارتك الليلة . فقد أرسل إلى
سيدى كافور اليوم يريد أن يرياً خاصاً لأدعوك إليه ، لأنه علم بقدمه
إلى دمشق ، وهو يريد أن يرين ملكه بفرائد شعرك ، وأن يسب
ملوك العرب في أن يكون بين خاصته أشعر شعراء العرب
وجم المتنبي حيناً دهم بهذا الطلب ، فأخذ يتلوى في مقعده
كما يتلوى الملسوع . ثم قال وهو يتصبب عرقاً :

— أمهلنى يا ابن ملك حتى أفكر ، فإن ارتجال الفكرة
في مثل هذه الأمور قد يكون مدعاة للزلل .

— ليس هناك زلل يا أبا الطيب في الاتصال بملك تعد
دولته من أعظم دول العرب .

— دعنى الآن يا ابن ملك ، فإنى لا أحب الرأى الفطير
— إنى أعجب منك . من من الملوك تقصد بعد أن نبذت
سيف الدولة ؟ إن كنت تريد بغداد ، فخذها نصيحة من
يهودى يرى أن مثلك لا يستطيع الإقامة بها يوماً واحداً . وإن كنت
تريد بلاد فارس ، فإنك لن تكون فيها إلا « غريب الوجه واليد
واللسان » . فلم يبق إذاً إلا مصر ، ولم يبق إذاً إلا كافور ، وهو
خير من يقدّر الرجال . وقد يجد فيك سيدى كافور أكثر مما
يجده المرء في الشاعر ، قد يجد فيك — وهو ناقد بصير — صفة

الرأى ، وحسن التدبير ، وعلو الهمة ، فيوليك إماراة تظهر فيها فضائلك ، ويتجلنى المحبوء من مناقبك . لا تردد يا سيدى ، إن مصر تسعد كل من دخلها : رحل إليها يوسف الصديق غلاماً مملوكاً ، بثمان بنحس دراهم معدودة ، فأصبح بعد قليل وزير المال ، وصاحب الأمر والنهى فى شئون الدولة ، أقبل يا أبا الطيب ولا تردد ، فإنى أعرض عليك ثروة وعزاً وجاهاً ، وربما كنت أعرض ولاية . فانفجرت أسارير المتنبي قليلاً بعد انقباضها ، وثارت فى نفسه شياطين الجشع والطموح ، ونسى العبد الأسود وما فى مدحه من ذلة ومهانة ، فى جانب ما فتح له اليهودى من أبواب المجد والسؤدد والعظمة ، التى هى حبيبة لنفسه قريبة إلى فؤاده . فرفع رأسه وتنفس طويلاً ، ثم قال :

— سأذهب أولاً إلى الرملة لزيارة أميرها الحسن بن طغج ، وبعد ذلك سارى ما يكون .

— هذا حسن . اذهب إلى الرملة يا سيدى ، فإن أميرها سيقنعك بأن مصر خير مكان يشرق فيه أدبك ، ويصدق فيه شعرك . متى ترحل إلى الرملة ؟

— بعد غد .

ورحل المتنبي إلى الرملة وأقام فى كنف الحسن بن طغج ، فأكرم وفادته ووصله فأجزل الصلة . ولم يتصدق عليه المتنبي بعد كل هذا الإغداق ، إلا ببعض أبيات فى المديح .
وكتب كافور إلى صاحب الرملة يلح فى قدوم المتنبي ،

ولبت ابن طنج أياً يزيتن إلى أبي الطيب الرحيل إلى مصر ،
 وهو يمانع وينفر كما ينفر المهر أبحموح . حتى لان قياده في
 نهاية الأمر ، حينما أغرته الوعود ، وحينما رأى أن الإقامة بالشام
 لا تستطاع . فشد رحاله إلى مصر في طليعة جمادى الآخرة
 سنة ست وأربعين وثلاثمائة . سار إليها يبسطه الرجاء ، ويقبضه
 الإباء وهو يمتنى النفس ويداعب الأمل :

وحيد من الحلال في كل مهمة
 إذا عظم المطلوب قل المساعد

لقاء

إلى أين تذهب يا أبا الطيب ؟ سؤال كثر توارده على خاطر
 المتنبى كلما طالت عليه الطريق ، وهاجت به الذكريات .
 سؤال كان ينفر من أن يجيب عنه ، ويود بتزع الروح لو أنه
 استطاع أن يلوى عنان جواده إلى بلد آخر ، ليستريح من هذا
 السؤال السمج ، ومن تلك الوخزات القاتلة ، التي تهلع لها نفسه
 كلما ألحف هذا السؤال ، وألح . ما هذا البطر الذي أفسد عليه
 حياته ورتق عيشه ؟ وما هذه الكبرياء البلهاء التي قذفت به إلى
 الدمار ، وما هذه الكرامة الموهومة التي حدثت به إلى الذل
 والصغار ؟ يتكبر على سيف الدولة خير أبناء العربية ، وأشجع
 فرسانها ، ويأنف من الإقامة في كنفه بين ظلال النعم ، وفي
 رحاب العز والجاه العريض . ثم يتدلل فيأبى أن يمدحه إلا إذا

استجدى مديحه ، ونزل عن جبروته صاغراً ذليلاً ! ثم يصول
 في صلف وعريضة على كل من حوله ، فيتسامى على أقارب
 الأمير ، وينال بهجائه كل شاعر في قصره ، ويقذف كل
 عالم في حضرته بكل قاصمة من السباب ! ثم ينتهي به هذا
 الجنون إلى أي شيء؟ إلى ما هو فيه الآن مما يبكي له الشامات ،
 ويجزع الحاسد . إلى أن يفارق الجنة ليضل في مهاوى الجحيم .
 إلى أن يهدم كل مجد بناه ويقضي على كل أمل داعبه وناغاه .
 إلى أن يتسلق إلى الحياة من جديد ولكن في شامخ وعمر المرتقى ،
 كثير المزالق ، قد ينتهي إلى هباء . إلى أن يمدح ذلك العبد الحبشي
 الضخم المشافر ، المنتفخ البطن المتفافل الشعر ، ويترك سادات العرب
 وصناديدها لا يجدون لمحامدهم ناشراً ولا لوقائعهم واصفاً . إلى أن
 يضع رأسه تحت قدمي هذا الزنجي القدم ، بعد أن أنف أن
 يطأطئه لأعظم الملوك . إلى أن يقول لليل الدامس أنت البدر
 المنير ، وللعبي الجاهل أنت نبراس البيان وخليفة سحبان ،
 وللغبي المغفل أنت الحكمة صوّرت في إنسان . أهكذا تنهي به
 الحال ؟ أين شهامته العربية وعزيمته العصامية ، وأين أشعاره
 التي كلها علو وشمم ، وشهامة وإباء ؟ هل أصبح كل ذلك
 رماداً ليس به بصيص نار ؟ ! وهل آضت كل هذه المناقب
 سراباً يحسبه الظمان ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ؟ !

يمر كل هذا بخاطر أي الطيب والجواد يقطع به المفاوّر بين
 الرملة ومصر ، فيئن أنين المكلوم ، ويزفر زفير المحموم ،

ولكنه يعود فيمضى نفسه بالأوهام ، ويهدى من ثائرتها بأضغاث
 الأحلام ، ويتجه نحو زاوية أخرى من زاويا التفكير فيقول :
 إن الحزن على ما فات من صفات النساء . والرجل الحق
 من يتخذ من هفواته سلماً إلى الفوز . والدنيا فيها الخير وفيها
 الشر . ولكن العاقل الحكيم من يقلب الشر خيراً ، ويبسم للأيام
 لتخضع له الأيام . ولم لا أصل إلى العبد الأسود إذا كانت آمالي
 في قبضته السوداء ؟ ولم لا أمدحه إذا كان في مدحه ما يحقق
 الرجاء ؟ الولاية ! الولاية هي خاتمة آمالي ، ونهاية مطافى ولن
 أبالي في طريق نيلها ببذل ماء المحيا والحياة ، وتعفير الوجه بتراب
 أدنى الأدنياء . ولو قيل لى : لن تكون ملكاً إلا إذا مدحت
 الكلب ، وغازلت القرد ، لفعلت راضياً مغتبطاً . نعم إنى أبغض
 الأسود وأشمتز من لقياءه ، وألعن الزمن الأغبر الذى أبحثنى إليه :
 وأحنّ إلى سيف الدولة ، وأبكى على عهده الوارف الظلال .
 ولكن ما حيلتى ؟ وليس إلى مآربى من وسيلة إلا أن أقصد هذ
 الكافور ؟

ومرت بالمتنبى أيام حتى بلغ بلبيس ، وهى أول أملاك مصر
 فى هذا العهد ، ولشد ما كانت دهشته حينما رأى الزعيم عبد
 العزيز بن يوسف الخزاعى يترقب مروره فى طائفة كبيرة من
 عشيرته . فلما قرب منه المتنبى تقدم فقبض على عنان جواده
 باشاً مرحباً ، وطلب إليه النزول ليستريح عنده فقبل المتنبى ،
 ورأى فى ضيافة عبد العزيز من الكرم ورحابة الصدر ما فرج

عن نفسه ، وأزاح بعض أحزانها .
 وجرى الحديث في أثناء الليل عن مصر وأحوالها ، وعن
 كافور ووزرائه وبطانته ، ثم مال إلى ذكر حلب وإلى أخبار
 سيف الدولة ، فقال الخزاعي :
 — أشهد إنه بطل ، وأشهد إنه من العار على ملوك العرب
 جميعاً ، أن يدعوه يناضل الروم وحده ، مع ما لهم من عدد
 وعدة .

— الغيرة والحسد يا ابن يوسف هما اللذان أذهبا ربح
 الإسلام ، وأضعفا أمراءه ، ومن عجائب القدر أن كثيراً ممن
 يقدرون في هذه الأيام لا يملكون !
 — ولكن سيف الدولة من القليلين الذين يقدرون ويملكون
 لقد كنا نتلقف ما يحمله إلينا البريد من قصائدك في وصف
 مواقعه ، ولقد كانت والله عجباً من العجب ، وسحراً من
 السحر . لم تركته يا أبا الطيب ؟
 — ذلك حديث طويل يا ابن يوسف . ومن الخير أن يترك
 الجرح حتى يندمل .

ففطن عبد العزيز إلى أن المتنبي يتألم لهذه الذكرى ،
 فانصرف عن الحديث فيها .
 وبزغت الشمس ، ورحل المتنبي بعد أن توثقت الصداقة
 بينه وبين عبد العزيز ، وعاهده على أن يكثر من زيارته
 بالفسطاط . ومضى يوم وبعض يوم ، بلغ فيه أبو الطيب باب

مصر الشرقى المسمى : باب الصفاء .
كانت مدينة القسطنطينية في ذلك الحين مستبحرة العمران ،
وافرة الثروة ، كثيره السكان ، تشرف على النيل رياضها الباسمة ،
وقصورها العالية التي قد يصل ارتفاع بعضها إلى سبع طباق .
حكى بعض المؤرخين : أن ستة عشر ألف دلو كانت تتدلى
من طاقات بيوتها المطلة على النيل . وكانت رائجة التجارة ،
كثيرة الأسواق والحمامات والحانات والمساجد ، التي أشهرها
الجامع العتيق ، الذي بناه عمرو بن العاص بعد الفتح .
وكان أهلها في بسطة من العيش ، ورغد من النعيم لكثرة
الأموال واتساع الحصب وقد كثر بها الأدباء والشعراء ، ورحل
إليها كثير من أقطاب العلم والأدب في الشرق ، فوجدوا في
كنفها الرغد وطيب الحياة . وكان الجامع العتيق يزخر بالعلماء
وطالاب العلم ، الذين وفدوا عليها من أقطار الأرض ، لتلقى علوم
العربية ، وفنون الأدب . وكان بها إلى جانب ذلك مجالس أنس
ولهو ، ومجانة وشراب ، تهوى إليها أفئدة الشباب وتختلف إليها
جماعات الأدباء — لا تقل عما كانت تزهى به بغداد في ذلك
الحين ، إسرافاً وجنوناً .

وكان قصر كافور بنخطة سوق العسكر ، بالقرب من بركة
تجرى فيها الزوارق ، وتلتف حولها بساتين ناضرة تعرف بجنان
بنى مسكين . وكان القصر شامخ البنيان ، ضخيم الأركان ، كأنه
الحصن العظيم . وقد انتشرت حوله الحدائق الخضر ، وأنهمرت

الحداول المتدفقة . أما أبهاؤه ودهاليزه وقاعاته : فقل ما شئت في جمالها وبهاؤها ، وزينتها ، وما أنفق في بنائها من أموال يكاد يخطئها العد . وكانت قاعة الملك كأنها قطعة من ذهب : فسقوفها وحيطانها ونقوشها وتصاويرها كلها من الذهب الإبريز ، الذي يكاد سنابرقه يذهب بالأبصار .

جلس كافور الإخشيدي في اليوم السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وثلاثمائة — على عرش ملكه ، ورجال قصره وجيشه وقوف يحيطون بسريره في رهبة وخشية ، كأنهم يحرسون سرّاً سماوياً مقدساً . وجلس إلى يمينه نقيب الطالبين عبد الله بن طباطبا ، فالشريف إبراهيم بن محمد العلوي ، ثم صالح بن رشدين الكاتب ، ثم الذين يلونهم في المرتبة من العلماء ورجال الدين . وجلس إلى يساره وزيراه : جعفر بن الفرات ، وأبو بكر بن صالح . وقائد عسكره سمول الإخشيدي ، ثم من يتلوهم في المرتبة من رجال الدولة .

وكان كافور أسود اللون ، فاحم السواد برأقه ، قصير القامة مترهل اللحم ، طويل الذراعين ، منتفخ البطن ، ضخم الجمجمة ، أفطس الأنف ، مثقوب الشفة السفلى ، واسع العينين ، صافى بياضهما . تنبعث منهما ومضات فيها دهاء وفيها مكر وخداع . وكان يحمل فوق رأسه عمامة كبيرة من الحرير الأبيض : المطرز بالذهب . ويلبس ثوبا من الحرّ التنيسيّ الثمين ، فوقه جبة من الحرير الأخضر فضفاضة واسعة الكمين .

وكان على الرغم من دمايته ونخسة منشئه وجهاله ، ذكياً متوقد الذكاء ، شجاعاً حازماً داهية في ميدان السياسة . فإنه حينما مات سيده الإخشيد اضطربت أحوال مصر وحسجت الفتنة ، وتطلعت رعوس كبار القواد إلى الحكم . فخرج كافور بولدى الإخشيد : أنوجور ، وعلى ، إلى بغداد . فأقر الخليفة الراضي أنوجور على ملك أبيه . واهتبل سيف الدولة فرصة موت الإخشيد فوثب على دمشق ، واستولى عليها ، فسار إليه كافور في جيش لحب فهزمه وأجلاه عن المدينة .

وقد حال حزم كافور وعمق سياسته دون زحف المعز لدين الله على مصر ، حتى كتب إليه بعض شيعته في مصر . . . إذا زال الحجر الأسود ، ملك مولانا المعز الدنيا كلها . . . ولا يريدون بالحجر الأسود إلا كافوراً .

وكان محباً للأدباء والعلماء ، يصلهم ويقرّبهم ، وكانت تقرأ عنده في كل ليلة سير الأنبياء ، وأخبار الأمويين والعباسيين . هذا إلى كرمه وتواضعه ، وشدة تمسكه بالدين . فقد كان أبو جعفر بن طاهر العلوي يقول : ما رأيت أكرم من كافور : كنت أسايره يوماً في موكب خفيف وهو يريد التنزه ، وبين يديه عدة جنائب بسروج من ذهب وفضة ، وخلفه بغال يمتطيها الخدم والعبيد ، فسقطت مقرعته من يده ولم يرها خدومه فتزلت عن دابتي وأخذتها من الأرض ورفعها إليه ، فذعر لما فعلت وقال : « أعوذ بالله من بلوغ الغاية . ما ظننت أن

الزمان يرفعني حتى تفعل بي أنت هذا ؟ » وكاد يبكي . فقلت :
أنا صنيعة الأستاذ ووليه . فلما بلغ باب داره ودعني ، فلما
سرت التفت فإذا النجائب والبغال كلها خلفي . فقلت : ما هذا ؟
قالوا : أمر الأستاذ أن يحمل موكبه كله إليك . فأدخلته داري ،
وكانت قيمته تزيد على خمسة عشر ألف دينار .

اتجه كافور إلى وزيره ابن الفرات وقال في صوت خافت :
— أظن الشاعر الحديد قد وصل إلى المدينة .

— نعم يا مولانا ، لقد علمت من بعض الجند أنه وصل
الآن .

— هل أعددت له كل شيء ؟

— نعم يا مولانا . لقد أعددت له دار أي بكر القرية من
باب الساحل ، وفرشت بأحسن الأثاث ، ووضع بها من يكفي
لخدمته .

— هذا حسن . لعله لا يفر منا كما فر من ابن حمدان !

— إن للشعراء يا مولانا ميزاناً للأخلاق غير الميزان الذي

تواضع عليه الناس . فقد قال هذا الشاعر لابن حمدان :

وقيدت نفسي في ذراك محبة

ومن وجد الإحسان قيداً تقيداً

ولكننا رأيتاه يفر منه كما يفر الزئبق من البنان .

— ماذا يقصد الشاعر يا جعفر من هذا الشعر الذي ذكرته ؟

— يقول يا مولانا ، إنه قيد رجليه عند ابن حمدان ، وإنه

لا يرحل عنه لأنه يحبه .

— هاها . فهمت فهمت ، وبعد أن قيد رجله فكّ قيدهما وفرّ . لأنه هو الذى قيد نفسه . أما إذا قيده غيره يا جعفر ، فإنه يصعب عليه أن يفرّ .

— لا شك فى أنه سينسى عند مولانا كل ملوك الأرض . وبينما هما فى الحديث ، إذ دخل كبير الحجاب وهو يقول : إن الشاعر المتنبي يلتمس أن ينال شرف المثل أمام مولانا . فرفع كافور رأسه وقال : ليدخل .

دخل المتنبي فى ثياب السفر ، بعد أن خلع نجاد سيفه بالباب ، فقبل الأرض ثم أطرق قليلاً ، فحيّاه كافور قائلاً : أهلاً بشاعر العرب . أهلاً بأبى الطيب . لقد أبطأت علينا كثيراً ، والدولة لا تكمل عظمها إلا بمثلك . إنك ستكون فى ضيافتي ، وأرجو أن تطيب لك الإقامة . أقبل على أبا الطيب ، ثم مدّ إليه يده فانكبّ عليها كأنه يريد أن يقبلها ، فجذبها العبد منه وهو يقول : أستغفر الله ! ثم أشار فأحضر كرسي إلى جانبه ، وأومأ إلى أبى الطيب بالجلوس . وهنا قال ابن الفرات :

— قد قرأنا ما ورد علينا من شعرك فى ابن حمدان فرأينا فناً جديداً ، وروحانية قوية تهز المشاعر ، وتثير خامد القلوب . ونرجو أن يتفتح لك النيل وحدائقه الباسمات عن معان لم تخطر ببال شاعر . إن بمصر يا أبا الطيب كثيراً من الشعراء ، وأكثرهم مجيد مبرز ، وقد رحل عنا منذ قليل أبو نصر كشاجم ، وهو

شاعر مبدع سباق . فمصر اليوم تجري في ميدان العلم والأدب
مع بغداد في طلق ، وتكاد تجاني عليها في شئون الحرب والسياسة .
— علمت أن بمصر شعراء ، وأرجو ألا يكون شأني معهم
كما كان مع شعراء حلب ! إن الشعر يا سيدي دولة يأبى رعاياها
أن يختاروا لهم ملكاً ، ولو أراد الحسد أن يبنى له عشاً ما اختار
إلا قلب متشاعر . دعني من هؤلاء لأنني جئت للأستاذ وحده
ولن أقول في غيره .

— لن تقول في غيره ؟ !

— إن من أدب الشاعر أن ينصرف إلى ممدوحه ، فلا يلهج
إلا باسمه ، ولا يشيد إلا بفضله .

فأربد وجه ابن الفرات ، وتكلف ابتسامة حاولت أن تمحو
ما بدا على وجهه من سماء الغضب ، وقال :
— وأظن أن من أدب الشاعر أيضاً أن ينصرف عن ممدوح
لمجد ممدوحاً آخر ، ويدعي أن الدهر لم يسمح بسواه ! فأسرع
أبو الطيب قائلاً :

— إن القلب قلب ، والشعر كالناس قد يخطئ أحياناً ثم
يصيب شاكلة الصواب . فاتجه إليه ابن الفرات في نظرتي نمر ،
وقال :

— أرجو ألا يخطئ هذه المرة يا أبا الطيب ! وهنا تحرك
كافور من مجلسه قليلاً فوقف من بالقاعة ، ووجه الحديث إلى
المتنى قائلاً : يوم الثلاثاء إن شاء الله نسمع إنشاد الشاعر ،

بعد سبعة أيام . فوقف المتنبي وحيًا في خضوع ثم خرج
 ذهب المتنبي إلى داره الجديدة وفي رفقة صالح بن رشدين :
 وكان شاعراً مجيداً ، أولع بشعر المتنبي قبل أن يراه ، فلما رآه
 زاد به إعجاباً ، وله حياءً : أحب فيه الرجولة ومخايل الشهامة ،
 ورأى فيه شاعراً لا كالشعراء ، وفي شعره شعراً لا كالشعر ،
 كأن ما كان سمعه من شعره صورة لنفسه الطموح وخلقه العظيم ،
 فلما بلغا الدار ، شدَّ على يده وقال :

— لقد أحبتك وهفت نفسي إليك منذ رأيتك يا أبا
 الطيب . فهل أطمع في أن تقبلني صديقاً ؟ لقد سمعت حديثك
 مع ابن الفرات ، وعرفت أنك أغضبت ، وهو رجل له دهاء
 الثعلب وفتك النمر ، يحوك من خيوط الشمس شباكاً ، ويخلق
 من قطرات الغمام نبالا ، وقد كان يريدك على أن تمدحه
 فجبهته في غير رفق ، ورددته في غير إحسان ، وهو لن يترك لك
 هذه ، ولو اعتصمت بأسباب السماء . فاحذره يا أبا الطيب ،
 واحذر من تخاطب ومن تعاشر في هذا البلد . إن العيون هنا
 تنبث في كل مكان ، والجواسيس ينفذون إلى ما لا ينفذ إليه
 الهواء . احذر أبا الطيب ، فإن أصحاب الأخبار في هذه الدولة
 هم المصرفون للأقدار ، ولهم مناهج يعجز إبليس اللعين عن
 انتهاجها : يأتون إليك مرة في صورة الناصح ، ثم ضحك وقال :
 وأخشى أن تعدني منهم — مرة يشتكون إليك جور الحكام ،
 وأخرى يمدحون أمامك من لا يستحق المدح . فاحذره

يا أبا الطيب ، وانصرف عنهم في هواده ولطف ، وأرجو أن
تتخذني لك أنخاً مرشداً ، ونحليلاً ناصحاً .

فهز المتنبي يده وقال : إني أشرف بصداقة سيد شعراء
مصر ، وسأمشي في نور هدايتك .

ودخل المتنبي الدار جزعاً محسوراً ، فوصف لمحمد كافوراً
ونجلسه فقال : دخلت يا بني على أمة حبلى يسجد أمامها صناديد
الأبطال ، ويخضع لإشارتها دهاة الرجال . جلس فوق عرشه ،
فرايت في ثياب أمير قرداً ، عيناه عينا ثعلب ، وإطراقه إطراق
ثعبان . أما ابن الفرات : فتقيل متعالم متعاضم ، نظر إلى في
كبر وجبريه كأنه ينظر إلى شاعر مجتد أفاق . سحقا لهم ، وسحقاً
للزمان الذي قذف بي إليهم : والله لكأنني أشعر أنني جئت
لأهجوهم لا لأمدحهم ! وكيف تنبسط نفسي لمديحهم ، أو
يتحرك لي لسان بالثناء عليهم ؟ إن مدح الأسود سيخلق في الشعر
فنأً جديداً ، أسمعت يا محمد ؟ سيخلق فن المديح الهجائي .
— كيف يا أبا ؟

— إني أعتقد أن لحظات ستمر بي وأنا أقرض الشعر في
الأسود ، أنسى فيها نفسي فربما طفرت مني أبيات في مديحه ،
هي شر من الهجاء .

— وماذا تصنع إذا فهم ؟

— إنه لا يفهم يا أغبي الأغبياء . هات عبدنا مسعوداً
وأنشده إحدى قصائدي ، فإن فهمها ، اقتنعت وأخذت الحذر .

— إن مسعوداً لا يفهم .

— وإن كافوراً لا يفهم ، لأن كافوراً مسعود قبل أن يكون كافوراً ، ومسعوداً كافور بعد أن كان كافوراً .

— والوزراء والشعراء الذين حوله ؟ ألا تخشاهم ؟ !

— اسمع يا بنى : إن الكلام الموجه يفهم من ناحيتين ، وهؤلاء لخبثهم وجلالة قدر كافور عندهم ، لا يفهمون إلا ناحية المديح .
— وإذا فهموا الناحية الأخرى ؟

— لا أبالي ما يفهمون . إن شعري لن يكون إلا صورة
لنفسى رضى الناس أم أبوا . ولو كنت من الذين لا يقولون الحق
الذى تجيش به نفوسهم ، لكنت اليوم ملكاً ، أتندّر بالأسود الزنيم .
ودر أسبوع صباغ فى غضونه أبو الطيب أول قصيدة فى
مدح كافور . وحين حان الموعد غصّ القصر بالأدباء والشعراء ،
والعلماء . وجلس كافور على عرشه ، وقد أحاط به القواد
والوزراء ، والأشراف والعلماء ، وقوفاً . وقدم المتنبي فأنحنى فى
إجلال وخشوع ، وأخذ ينشد قصيدته فى صوت ندى حلو
النبرات ، وكان صدى كل بيت إعجاباً واستحساناً . وطلب
بعض الشعراء إعادة بعض الأبيات لرصانتها ولما فيها من تجديد
رائع ، وفن رفيع . وكان كافور يهز رأسه طول مدة الإنشاد ،
كأنه أرجوحة طفل عنيد ، أنى أن ينام . فلما فرغ أبو الطيب
أمر له كافور بعشرة آلاف درهم . وأقبل القوم عليه يحيطونه
وينثرون فوقه أزاهير الإعجاب والثناء . وخرج مع الشريف

إبراهيم العلوي وهو مطرق الرأس ، حزين يهمس بمطلع قصيدته :
 تكفى بك داء أن ترى الموت شافياً
 وحسبُ المنيا أن يكنَّ أمانيا

ضجيج

أثارت قصيدة ألي الطيب ضجةً وصخباً في مجامع العلم والأدب ، فلو قيل إن العبيدين زحفوا على مصر من المغرب ، ما كان شغل الناس بالخبر واهتمامهم به ، فوق شغلهم بهذه القصيدة وما فيها من ومضات فنية ، لم يكن لهم بها عهد . وفي القصر يزدحم القواد ورجال الدولة ، حول ابن الفرات ، وهو يردد كثيراً من أبياتها ، معجباً تارة وعابساً تارة أخرى . وفي سوق الوراقين يتكاثر الأدباء على النساخين ليظفروا بنسخ منها ، وإن اشتطوا في الأجر ، وغالوا في الثمن . وفي الجامع العتيق يتجمع الطلاب ، ويشتد بينهم الجدل في معاني القصيدة ومراميها ، وبينما هم في لغط وصراع ، إذ أقبل عليهم أبو بكر الكندي ، وكان من أدباء مصر وعلمائها ، فصيحاً بارعاً في الحديث واللغة والنحو والأدب ، حتى لقد لقبَ يسيويه ، لمكانته في النحو وغريب اللغة . وكانت مع هذا به لوثة جنون ، فكان يركب حماراً أكثر أوقات النهار ويدور به في الأسواق ، ويتكلم وهو راكب ، والناس حوله يكتبون ما يقول .

فلما رأى الطلبة أبا بكر تسابقوا إليه متصايحين : إلينا

أبا بكر ! إلينا يا صاحب الحمار ! فقد اشتد جدالنا في بعض أبيات من قصيدة المتنبي ، وعندك القول الفصل ، وأنت جبهة التي تقطع قول كل خطيب .

— إن المتنبي يا أبنائي رجل معروف المكانة ولكن له هفوات في اللغة ، وانحرافاً عن الأسلوب السليم . فصاح الجمع : كيف يا أبا بكر ؟

— لقد زل في بيته المشهور :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدواً له ما من صداقته بد

لأن الصداقة مشتقة من الصدق في المودة ، والحر لا يصدق في مودة عدوه . والصداقة ضد العداوة ، ولا موقع لها في هذا الموضع . فابتدريه أحد الطلبة قائلاً : وماذا كان يقول يا أبا الحمار ؟ !

— كان يقول :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدواً له ما من مداجباته بد

فصفق الطلاب ، وعلا صياحهم في إعجاب وسخرية ، فأشأ إليهم بذراعيه ليسكتهم . ثم قال : أما القصيدة الجديدة فمطلعها وهو :

« كفى بك داء أن ترى الموت شافياً » لا يصح أن يخاطب به ملك وإن كان كافوراً . وفي قوله :

ولكن بالفسطاط بحراً أزرته

حياتي ونصحي والهوى والقوافيا

سحف وتطفل وتعد على الوزراء وكبار الدولة . لأن قوله أزرته حياتي معناه جعلت حياتي تزوره ، وليس لهذا المعنى قيمة يتجه إليها شاعر . ثم يقول وأزرته نصحي فيدعي أنه وصل في أصالة الرأي وبعد النظر في السياسة إلى القمة ، وأنه قدم من الشام لأن الأستاذ كان في حاجة إلى نصحه وثاقب رأيه ، على الرغم من كثرة قواده ووزرائه .

فغضب أحد الطلاب وقال : هذا تعصب يا مجنون . فأوماً إليه في حلم وهدوء وقال : أما ثلاثة الأثافي فقوله في المديح : فتي ما سرينا في ظهور جسدودنا

إلى عصره إلا نرجى التلاقي

فهل سمعتم أقبح من هذا وأسحف ! إن آباءكم أيها الطلبة النجباء من لدن آدم كانوا ينقلونكم من ظهر إلى ظهر ، لتتمتعوا بطلعة جمال كافور ! ثم انظروا إلى التركيب المعوج وإلى سوء الأدب في حق ممدوحه حين يقول :

ومن قسول سسام لو رآك لنسله

فدى ابن أخي نسلي ونفسي وماليا

ومستقيم الكلام أن يقول : لو رآك سام لقال أفدى ابن أخي بنسلي . واللثم هنا يقذف سهماً مسموماً فيلحق ملكنا بأبيه حام الأسود في وقاحة سافرة .

هذا أيها الطلبة بعض ما في القصيدة التي لهجت بها الأفواه ،
وتناقلها الرواة ، وغالى بها أدعياء الشعر والأدب . ولكنكم
يا أهل مصر لا تحبون إلا الحديد ، وما أشبهكم بنبي إسرائيل
الذين سثموا المن والسلوى ، واشتهوا على الله الفول والبصل !
وهنا انبرى له فريق كبير من الطلبة يتزعمهم شاب كان
يعرف بينهم بالذكاء وقوة الشكيمة ، حتى لقد كان العلماء
يدارونه ويصانعونه ، ويتجنبون سلاطة لسانه ، فقال له :
— هذا نقد زائف أيها الشيخ . وهذا دأبكم دائماً أيها
الأدباء البخامدون ، لا يلتصع أمامكم من الشعر جديد إلا قطعتم
أنفاسكم في إطفائه . تركت القصيدة كلها يا مولانا ، وهي آية
خالدة من آيات البيان ، وجئت تماحك في أبيات خيّل إليك
سوء فهمك أن فيها متنفساً لحقدك ، وكل ما قلته هراء ، ولن
يضر الشمس ألا تراها مقلة عمياء ، ولن يبالي السحاب بنباح الكلاب .
فقهقه أبو بكر طويلاً وقال : إننى السحاب ، وأنتم
الكلاب ! ثم انقل من بينهم كأن أرضاً ابتلعتهم .

وفي هذا اليوم كانت تجلس عائشة بنت رشدين إلى جانب
شرفتها المطلّة على النيل ذاهلة واجمة ، وكانت المراكب تهادى
فوق أمواجه تحتها ، وقد داعب النسيم شرعها في رفق ولين ،
كأنه زفرة عاشق ، أو جسة طيب حاذق . وانطلقت أصوات
الملاحين بالغناء مغرّدة مطربة في نغمات اعتادوها ، وأغنيات
ابتدعوها ، فيها شوق وفيها شكوى وفيها حنين إلى الأوطان .

وكانت عائشة بارعة الحسن مشرقة الطلعة ، لها وجه صباحي
 تحير فيه ماء الشباب ، وتزاحمت فيه صنوف الفتنة : فعيان
 سوداوان فيهما سحر ، وفيهما خمر ، لهما نظرات ذابلة يخفضها
 الحياء ، ويعترك أمامها اليأس والرجاء . وأنف تأذقت في تكوينه
 يد الجمال ، لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً . وفم ياقوتي لؤلؤي صن
 على الشفاه بالقبلات ، وعلى العاشقين بالبسمات .
 ونحصر تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقا
 ثم هي إلى ذلك معتدلة القد ، رخصة الجسم ، هضم الكشح .
 لها بشر الدر الذي قلدت به

ولم أر بداراً قبلها . قلد الشهباء
 وكانت صورة للعفاف ، وتمثالا للطهر ، وملكاً سماوياً
 كوّن من نقاء ونور .

وقد كثر عشاقها ، وتسابق إلى اجتذابها أبناء سراة المدينة
 وكبار حكامها ، فكانت تقابل الإقبال بالإعراض ، والرجاء
 بالإباء ، لأنها أنفت أن تكون في طاعة رجل ، أو أن يكون
 جماها ملهاة للعابثين ، ونهباً للواغلين . فتن بها أبو بكر بن
 صالح وزير كافور ، وجنّ بها جنوناً ، وأغراها بالمال والجاه ،
 ولم يترك أحبولة لاصطيادها إلا نصبها ، ولكنها صدفت عنه في
 كبرياء ، ونفرت كما تنفر مروعة الظباء .

وقد نشأت عائشة في بيت أدب وشعر ، فقد كان أخوها
 أبو علي صالح بن رشدين من أعظم كتاب المملكة وأبرع شعرائها

وكانت داره مثابة لأدباء مصر ، فنشأت عائشة في هذا الجو الأدبي كما تنشأ الزهرة على شاطئ الغدير . وثقفها أخوها فأحسن تثقيفها ، وتلقّت من كبار العلماء والشعراء دروساً في الشعر والنحو واللغة ، وكان من أساتذتها عبد الله بن أبي الجوع الشاعر الأديب اللغوي . وكانت برزة في النساء لا تحتجب عن الرجال إلا بنحو رقيق أسود تلفه حول وجهها فيبرز كالبدن في محتلك الظلام .

وكثيراً ما حضرت في دارها مجالس للشعراء الذين كانوا يكثر من ازديار أخيها لكرمه وسجاجة خلقه . وكان أبو بكر ابن صالح يدأب على شهود هذه المجالس ، وله يظفر من فاتنة له بكلمة رضاً أو لمحة حنان ، ولكنه كان لا يلتقي إلا تجاهلاً وإعراضاً .

جلست عائشة إلى جانب شرفها وفي يدها ورقة كتبت بها قصيدة أبي الطيب ، وكانت تقرأها متشدة مفكرة ، وكثيراً ما كانت تهتز في طرب وإعجاب . وبينما هي منصرفة إلى القراءة إذ دخل أخوها وهو يصيح : ألا تزالين تكرررين أبيات هذه القصيدة ؟ !

— لقد حفظتها ، إنها إلهام صور في كلام .

— حقاً إنها من عيون الشعر .

— إنه شاعر وفي . اسمع يا أبا علي حنينه إلى سيف الدولة ،

وكيف صاغ هذا الحنين في عزّة الأنوف ، وإباء العيوف :

حببتك قلبي قبل حبك من نأى
 وقد كان غداً أراً فكن أنت وافيها
 وأعلم أن البين يُشكيك بعده
 فلست فؤادي إن رأيتك شاكيا
 فإن دموع العين غدرٌ برها
 إذا كنّ إثر الفسادين جواريا
 إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى
 فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقيا
 وللنفس أخلاق تدل على الفتى
 أكان سخاء ما أتى أم تساخيا
 أقلّ اشتياقاً أيها القلب إننى
 رأيتك تضحى الود من ليس صافيا
 خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا
 لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

أرايت يا أخى كيف يصاغ الكلام ، وكيف ينفث السحر ،
 وكيف يثور العاشق المهجور على قلبه لأنه يحب من لا ينى ،
 ويضحى الود للمماذق الغادر ! . ثم هل رأيت كيف ونخر الشاعر
 سيف الدولة فى رفق لا يكاد يحس ، حين قال إن إعطاءه لم يكن
 سخاء بل كان تساخياً ؟ ثم هل مر بك فى حسن التخلص
 والإبداع فى مدح السواد مثل قوله :

قوا صمد كأفـور توارك غيره

ومن وجد البحر استقل السواقيـا

فجاءت بنا إنسان عـين زمانه

ونـحلت بيـاضاً خلفها وماقـيا

قل لي يا صالح : هل حضرت حفل الإنشاد ؟

— حضرته ، وواثقت أبا الطيب على المحبة والإخلاص .

— نعم ما فعلت يا أخي ، إنه غريب الدار ، قليل الصديق

في بلد تنبت فيه التمام كما تنبت الأشواك .

— لقد حذرته من كل ذلك يا عائشة ، ولم تعجبني نظرة

ابن الفرات إليه ، وطفرت من أبي بكر بن صالح في المجلس

كلمات شملت منها رائحة الحقد والضغن .

— بشس القوم ! إنهم لا يعيشون إلا في جو مـدنـس بالمكر

والخدعة . صف لي المتنبي يا أبا علي .

— إنه صورة للعربي السـمـح الوسيم .

— هل شاع في شعره الشيب كما يقول ؟

فضحك صالح ، ونظر إليها نظرة مزجت فيها الدعابة

بالاستنكار ، ثم قال :

وما لنا الآن بشيب شعره ، ونحن نتحدث في رائع شعره ؟

لا يا فتاتي إن شعره لم يطرقه الشيب . وهو الآن في نحو الأربعين

لم تفارقه نضارة الشباب . هل من سؤال آخر ؟ سؤال مثلاً عن

لون عينيه ؟ أو تكوين أنفه ؟ أو طول قامته ؟

— إنك رجل ماجن يا صالح ، لا تترك المزح ما وجدت
إليه سبيلاً . ثم قامت في عجلة وهي تتصنع الاهتمام بإعداد
العشاء .

ومرت أيام كان فيها المتنبي يزور كافوراً في كل يوم ،
ويلقى من بشاشته وكرمه ما يغرس المحبة في القلوب ، ولكن
هيات ! فإن المتنبي لا يريد مالاً ، ولا يريد بشاشة ، وإنما
يريد من الأيام ما لا توده ، ويسعى إلى منهل يعجز الطير ورده
وكان يلتقى في أثناء هذه الزيارات بابن الفرات ، فيلبس كل
منهما لصاحبه غير وجهه ، ويتحدث بغير ما في قلبه . وكثيراً
ما شهد المتنبي وفود الشعراء وطلاب الحاجات وهم يردون على
ساحة كافور . وحدث مرة أن كان في حضرة الأستاذ وإلى
جانبه أبو إسحاق النحوي ، فدخل الفضل بن العباس على
كافور يحياه ، وما كاد يقول : أدام الله أيام سيدنا ، حتى
خفض ميم الأيام ، فابتسم من المجلس ، ولحظ كافور ابتسام
القوم فابتسم ، ووقف أبو إسحاق يعتذر عن الفضل ويقول :

لا غرو إن لحن الداعي لسيدنا
وغص من دهش بالريق والبهر
فتلك هيئته حالت جلالتها
بين الأديب وبين القول بالحصر
فإن يكون خفض الأيام عن غلط
في موضع النصب لا عن قلة البصر

فقد تفاعلت في هذا لسيدنا
والفسأل نأثره عن سسيد البشر
بأن أيامه خفض بلا نصب وأن أوقاته صفو بلا كدر
ونيتت أول بذرة للشقاق بين المتنبي وبعض أدباء مصر ،
وطارت أول شرارة للشر بينه وبين طائفة من شعرائها ، حينما
دُعي مرة إلى مجلس أبي بكر بن صالح وزير كافور ، وكان
ابن الفرات حاضراً ، وقد غص المجلس بالشعراء المتعصبين
لأبي القاسم الأنصاري ، الذي جاء لينشد أبا بكر قصيدة في
مديحه ، وكثر لفظ الشعراء ، وكثرت الإشارة إلى المتنبي ، وهمس
صالح بن مؤنس في أذن من يجانبه قائلاً :
— سيكون هذا اليوم فاصلاً في سمعة مصر في الأدب ،
ومكانتها في الشعر .

— إن أمة أنت شاعرها يا ابن مؤنس لن تلقى بلواها إلى
شاعر أفتاق . فظهر الغضب على وجه ابن أبي الجويع وكان
صديقاً وفياً للمتنبي ، فأشار إليهما بيده في عنف وهو يقول :
— ليس للشعر وطن أيها الغبيّان ، والعربية وطن لكل
عربي . وهنا وقف أبو القاسم الأنصاري وتبهاً للإنشاد بين
نظرات الإعجاب من شيعته ، وايتسامات الرضا من أبي بكر
وابن الفرات . وما كاد يبدأ قصيدته بقوله :
« نظر المحب لدى الحبيب غرام » .

حتى انبرى له المتنبي بخطئه في خشونة وجفوة صائحاً : قف

يا شيخ ! إن العرب لا تقول نظر لدى فلان ، ولا تقول غرام لدى فلان ، وإنما تقول نظر إليه ، وغرام له ، إلا إذا كنت تريد أن تجعل من لغة الضاد لغة نبطية .

وهنا أريد وجه ابن الفرات لأن أجداده كانوا من النبط ، ولم تنل الدهشة من الأنصارى ، ولكنه قهقهه في سخرية وقال : لا تجزع يا أبا الطيب فقد فسد كل شيء في هذا الزمان حتى أصبح مثلك يتبجح بمعرفة لغة لعرب ، ويقول : قل كذا ، ولا تقل كذا . إن سميت الكندي الفاجر الضليل ، لا يجرؤ على أن يدعى أنه أحاط بالعربية ، فكيف بك وأنت لست من ذلك ! إن العرب أيها الأصمعي الجديّد تقول : نظر لديه وله وإليه ، وتقول : غرام لديه وله وإليه ، والكلمات ينوب بعضها عن بعض ، وإلا فأين التضمين وأين المجاز ؟ فقال المتنبي في حدة : تقول أكلت على الإناء ؟

— أقول أكلت على الإناء وفيه ومنه . وهنا صفتك أشياخ الأنصارى ، وتصايحوا في شماتة ونكر . فلما هدهوا قال ابن ألى الجوع : إذا كان بعض الكلمات ينوب عن بعض فإن هذا معقود بشرط لا بد منه هو أن يكون الأسلوب جارياً مع الذوق العربى السليم ، سائغاً في أذن الأديب البصير بمرامى الكلام . وهنا تسارع القوم إليه فأسكتوه ، وشرع الأنصارى في الإنشاد فأخذ أشياخه يبالغون في الاستحسان وطلب الإعادة . فلما أتم القصيدة خلع عليه أبو بكر وأجزل له العطاء ، فانتحى ناحية

من الحجرة وأخذ يدوّن أبياتاً حتى إذا أتمها طلب أن ينشدها ،
فأذن له ، فكان منها :

/ لما تعرض لي بمقت حاسدى

أبدى الملام وكيف يرضى الحاسد ؟
في مجلس أما الوزير فنكب فيه يؤيدنى وأنت الساعد
ولى فما أنا شاكر لسؤاله يوما ولا هو بالإجابة حامد
وهنا نظر ابن الفرات إلى أبى الطيب وقال : هذا شاعر
هجاء سليط اللسان فخذ حذرك منه يا ابن الحسين .
— إنه أقل من أن ألقى إليه أذنًا ، أو أرفع له قدرًا بالرد
عليه ، ولقد قلت فيمن هم أقدر منه وأشعر :

أرى المتشاعرين غروا بدمى ومن ذا يحمد الداء العضالا ؟
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرأً به الماء الزلالا
ثم وقف مغضباً ، وانصرف مع ابن أبى الجوع ، وقد
عرف أن سخط الناس عليه وبغضاءهم له لا يفارقان ظله أينما
سار ، ولو أنصف نفسه لعلم أن نفسه هى مثار السخط ،
ومصدر هذه البغضاء . وودَّ أن يرحل عن مصر ، ولكن ماذا
يعمل لهذا الأمل الطائر الذى لا يستقر فى وكن ، وذاك الخيال
السابح الذى لا ينال بالأكف ؟ ليصبر إذاً ، وليتحمّل فى سبيل
غايته كيد الكائدين ودس الحاسدين . ووصل فى هذا اليوم إلى
داره وهو ينفخ من الغضب ، ويزجر زجيرة الليث ، وينشد :
ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روى ربحه غير راحم

حب

وبنى كافور داراً جديدة بالقطائع بالقرب من الجامع
الأعلى ، واحتفل بافتتاحها ، ودعا أبا الطيب أن ينشد قصيدة
في الحفل ، فقصي يومين وهو في تردد : أيشير إلى مطلبه
الأسنى ، أم يترك الأمر إلى حذق كافور وفطانتة ، فقد بدرت
منه كلمات أمل المتنبي منها خيراً ؟

ويعقد الحفل ، وينشد المتنبي قصيدته فيبهر الناس بما فيها
من جرأة وتدلل على الممدوح حين يقول :
إنما التهئات للأكفاء ولن يداني من البُعْداء
وأنا منك لا يهنيَّ عَضْوُ بالمسامرات سائر الأعضاء
مستقلٌ لك الديار ولو كا ن نجوماً آجرٌ هذا البناء
وتسير القصيدة في الأندية والمحافل ، وترددها الأفواه ، ويرفعها
نصرء المتنبي إلى قمة لم يصل إليها شعر شاعر ، وينزل بها أعداؤه
إلى وهدة مالها من قرار . ومن العجب أن ما يستهجنه الأعداء
هو بعينه ما يستجيده النصرء . وقف صالح بن مؤنس في جامع
عمرو بين حشد من الطلبة وأخذ يصيح : اسمعوا أيها الطلاب ،
اسمعوا اسمعوا هذا الخبث الحديد في الشعر ! وهذا الفتح المبين
في عالم السخف ! اسمعتم أيها الأنجباب بشمس منيرة سوداء ؟
اسمعتم بمثل هذا التناقض ، وبمثل هذا الخلف ؟ شمس تضيء
وهي سوداء ، وليل يظلم وهو مضىء . اسمعتم برجل أعمى وهو

يبصر؟ إن لم تكونوا قد سمعتم بشيء من هذا فاذهبوا واسألوا
هذا الشاعر الدعيّ المتشددّ ، فإنه يقول ويخاطب مولانا :
تفضّح الشمس كلما ذرّت الشم

سُ بَشْمَسٍ منيرة سوداء
وهنا يقهقه بعض الطلاب ويصيح : هذا ابتداء جديد ،
لم تخلق له عقول مثل عقولنا !

ودخل صالح بن رشدين على أخته وكانت تنظر في رسالة
من رسائل الغرام التي يبعث بها إليها أبو بكر بن صالح في كل
يوم ملحاً مستعطفاً ، فقدفت بها في تأفف وسخرية ، ثم
اتجهت إلى أخيها سائلة : ماذا في يدك يا أخي ؟

— القصيدة الجديدة . لقد كان هذا اليوم نصراً مؤزراً
لأبي الطيب يا عائشة . فقالت في تطلع وشوق :
— كيف ؟

— قصيدته في الدار الجديدة .
— ليس عندي شك في أنها ستكون درّة نادرة .
— إن فيها بيتاً لم يخفض جناحه لشاعر من قبل . أسمعت
بمثل قوله وهو يخاطب كافوراً :

تفضّح الشمس كلما ذرّت الشم س بَشْمَسٍ منيرة سوداء
— الرنين الرنين ! ! الرنين يا صالح ! !

— لا تقولي الرنين يا عائشة . قولي المعنى قولي الخيال
الغريب ! أليس عجباً أن يجرؤ شاعر على أن يطرق هذه الناحية

الدقيقة المحفوفة بالمخاوف في مدح أسود ؟ ولكن أبا الطيب طرقها
غير هيتاب ، وتحدثني من قبله من الشعراء الذين أكثروا من
تشبيه وجوه ممدوحهم البيض بالشمس . فهو يقول إن كافوراً
يفضح الشمس كلما طلعت ، بشمس منه من نوع جديد ،
هي شمس سوداء ، ولكنها على سوادها تفوق شمس السماء في
إنارة طريق الحق للضالين ، وفي رفعة أوجها وبعد منزلتها . رأيت
شاعراً في القديم قال ما يشبه هذا ؟ .

— لا يا أبا علي هذا خلق جديد . ثم أخذت منه الورقة ،
وجعلت تقرأ حتى بلغت آخرها فقبضت على ذراع أخيها وهي
تقول : اسمع يا صالح إن الرجل بعيد المطامع ، إنه يطلب من
كافور شيئاً عظيماً فليت شعري ماذا يكون ؟ ثم أخذت تقرأ :

يا رجاء العيون في كل أرض
لم يكن غير أن أراك رجائي

ولقد أفنت المفاوز خيلي
قبل أن نلتقي وزادي ومائي

فأرم بي ما أردت مني فإني
أسد القلب آدمي الرواء

وفؤادي من الملوك وإن كا .

ن لساني يرى من الشعراء

ماذا يريد يا صالح ؟ فابتسم ثم قال :

— إنه يقول إن فؤاده من الملوك ، وأخشى أن يجد أعداؤه

من مثل هذه البوادر منفذاً للكيد له عند كافور . فتجّهم وجهه عائشة وهزّت رأسها وهي تقول :

— ما أكثر الدسائس في هذا البلد الحصيب ! ثم التفتت إلى أخيها قائلة : علمت بما جرى للمتنبّي من تألب الشعراء عليه في مجلس أبي بكر بن صالح ، ومن انتصاره لهم . واأسفاه للشاعر الغريب بين هؤلاء الكلاب السود ! هلاًّ دعوته غداً أبا عليّ لنشعره بالأنس ، ولنخفف عنه بعض ما يلاقى من الوحشة والضيق ؟

— سأدعوه غداً ، وسأدعو معه جملة من الشعراء والأدباء ، وستكون ليلة لاهية عابثة ، ينسى بها كل ما يتتابه من هموم ، وستطر بنا « خمر » المغنية ، وستنسى عقولنا ، ونفرّ من هذا الوقار الملعون الذي أشاب نواصينا قبل الأوان . فضحكت عائشة وقالت : إنني لا أحب هذا الصخب ولا تلك العريضة ، ولكنكم معشر الرجال لا تنسون أبداً أنكم كنتم أطفالاً .

وذهب ابن رشددين إلى دار المتنبّي فرأى عنده الشريف إبراهيم العلوي وعبد العزيز الخزاعي زعيم العرب ببليس ثم بعض المعجبين به من الشعراء كابن أبي الجحوع وابن أبي العصام . وكان المتنبّي يحدثهم في حروب سيف الدولة ، وكيف خاض كثيراً منها ، وكيف لاقى الموت في بعضها . فلما فرغ من الحديث اتجه ابن رشددين إلى من بالمجلس وقال : لقد جئت لأدعوكم مع أبي الطيب للعشاء بداري غداً ، وترجو السيدة عائشة — التي

تقدر أدب ابن الحسين وشعره — وأرجو معها ، أن تنال هذه الدعوة منكم قبولاً . فأجاب الشريف :

— إن السيدة عائشة زهرة مصر الناضرة ، ونجمها الساطع ، ومثلها في طيب عنصرها وعلو منزلتها في الشعر والأدب لا يرد له دعوة . سمعاً وطاعة يا ابن رشدين . وقال المتنبي :

— إنني رجل جد وصرامة خلق ، وأخشى أن مثلي لا يجد له نصيباً في مجلس ربات الحجال . فقال الشريف :

— إن أديبتنا تعشق النفوس قبل الوجوه ، وترى جمال العبقريّة فوق كل جمال . فلتكن خشناً كما تحب أن تكون ، فإنها ستخلص ما فيك من ورد مما اشتبك به من أشواك . وابتسم المتنبي وهز رأسه لابن رشدين بالقبول .

وقدم المتنبي إلى دار ابن رشدين بعد الغروب فاستقبله صاحب الدار ، وتقدمت إليه عائشة فمدّت إليه يدها مرحبة محيية ، ونظرت فإذا هي أمام صورة للعظيمة العربية والرجولة المتوثبة ، ورجعت البصر فرأت ملامح بطولة ، ومظاهر عزيمة تتحطم دونها آمال النساء .

أخذت عائشة تحادثه وقلبها يخفق ، ولسانها يتعثر ، لقد هجم عليها شعور لم تعرف له من قبل مثيلاً ، وأصاب جسمها رعدة لم تدر لها تأويلاً ، إنها تحسّ بسرور يسرى في أوصالها ولكنه سرور ممزوج بخوف ، مصحوب بما يشبه الألم . وتتخيل كأن نارا تأججت في فؤادها فأخذ يضطرم بنوازع مجهولة

مبهمة ، وتذكر لأول مرة أنها أنثى ، وأن عاصفة هوجاء تدفعها إلى التشبث بالرجل الجالس إلى جانبها ، لتجد تحت جناحه الدفء والأمن والنعيم . ما هذه النازعة الجامحة التي جرفت بها ، وعبثت بها كما تعبث الرياح بأوراق الشجر ؟ وما هذا الطارئ المفاجئ الذي دخل قلبها بلا استئذان فاستبد بكل ما فيه ؟ أهذا هو الحب ؟ إن كان إياه كان شديد البطش ، سريع الأخذ ، جباراً لا يرحم ، وغازياً لا يبتلى على جريح .

جلست عائشة إلى جانب المتنبي ذاهلة اللب مبددة الفكر ، ولكنها بعد حين استطاعت أن تجمع أشتات خواطرها وأن تنفض عنها قطرات الموجه التي غمرتها ، ثم اتجهت إلى المتنبي وقالت :
 — لعلك رأيت يا سيدي في مصر ما يسليك عن الشام ؟
 — لقد كان عيشي بالشام رغيداً ، وكنت في كنف ملك عربي مجاهد ، ولكن آدم ورث أبناءه السخط على النعيم ، وعلمهم مفارقة الجنان .

متى تسمعنا قصيدتك الثالثة ؟

— حينما تسنح الفرصة ، وتهفو النفس إلى قول الشعر .
 — لو كنت أبا الطيب المتنبي ، أو لو كان لي بعض تلك الهبة الغالية التي أنعم الله بها عليك ، لملاأت جنبات الوادي تغريداً ، ولزاحمت الطيور في أوكارها ، ولهرزت الأغصان في أدواحها ، ولأسمعت النيل في كل لحظة ألحاناً تكاد ترقص لها أمواجه ويقف تياره . عجيب شأنكم أيها الشعراء ! تضمنون

بفيض الله على خلق الله . لقد منحتم هبة ما بذلتم فيها جهداً ،
ولا مددتم لأخذها يداً ، وهي نبع لا يفيض ، وكثر لا يفنى ،
وهبها لكم واهب الجود ونخالق الوجود . ومع هذا تمر الأيام أو
الشهور فلا نسمع لكم إلا بيتاً أو آياتاً قصاراً ! إني أعذر الشحيح
بماله لأنه جمعه يذل الجهد ، وإضناء الجسم والنفس ، وإراقة
ماء الوجه ، ووصل الليل بالنهار ، فهو به ضنين ، وعليه
حريص . أما أنتم فما عذرکم فی الضن ؟ وما حجتكم على المنع ؟
ثم ابتسمت لأبي الطيب واستمرت تقول : دعني أعاتبك
يا أبا الطيب : أقمت بيننا شهراً فما اهتزت شاعريتكم لوصف
ما ترى من روائع المشاهد ، ولا اجتذب نظرك جمال يوقظ فيك
وسنان القريض ! أين من شعرك النيل وأمواجه ، وسفنه السابحات ،
وهو يتهاذى بين الشاطئين كالملك بين رعيته ، يجود على الأرض
بمائه تبراً ، فتثر عليه من أزهارها ياقوتاً ودرّاً ؟ وأين من شعرك
تلك الأهرام العاتية التي لم ينحن ظهرها لعواصف الدهر وأحداث
الزمان ، والتي لو تحدثت بأخبار الملوك الذين أقاموا في ذراها ،
والحيوش التي مرت بها ، لسمعنا حديثاً عجيباً يهدي إلى الرشيد ؟
أين من شعرك رياض مصر الباسمة ومروجها الفاتنة ، ونخيلها
الباسقات ، وأدواحها الظليلات ؟ أحب يا أبا الطيب أن تكون
شاعر الدنيا لا شاعر الملوك . أحب أن تصور لنا الحياة حلوة
لذيذة كما نحب أن تكون . أحب أن يكون في شعرك أمل
اليأس ، وعملالة العاشق ، وسلوة الحزين ، وهداية الحائر . إن

الشعر دنيا جديدة خلقها الله للناس ليفروا إليها كلما ضاقت
 بهم دنياهم ، وجعل مفاتيحها في أيدي الشعراء ، فافتح للناس
 يا سيدي من أبوابها ما ينقذهم مما هم فيه من بؤس وشقاء ! صور
 لهم جمال الحياة يا أبا الطيب تصويراً يحب إليهم الحياة ، واخلق
 لهم من رائع خيالك كوناً جديداً فقد ضاق بهم على اتساعه هذا
 الكون اللعين .

كان أبو الطيب مطرقاً معجباً بما يسمع ، وكلما رفع بصره
 رأى جمالاً أعجب مما يسمع وأروع ، فثارت في نفسه نائرة
 واهنة القوى من الميل ، ولكنها لم تجد السبيل إلى قلبه المملوء
 بالمطامع والآمال . فأتجه إلى الفتاة وقال : إن فما قلته كثيراً من
 الحق يا سيدتي عائشة ، غير أنك ظننت أن الشاعر يستطيع أن
 يقول كلما أراد ، ويستطيع أن يجيد كلما أراد ، وصورت الشعر
 نبعاً ليس على الشاعر إلا أن يملأ منه الوعاء ثم ينثره على الناس ،
 ومزماراً يكفي أن ينفخ فيه الشاعر فيأتي بأبداع الألحان . لياسيدي
 إن الشعر ضعب المرتقى ، بعيد الملتقى . إنه طائر حذر خداع ،
 طالما زحفت إليه على ركبتي ليلة كاملة في خفوت وتؤدة ، ففر
 من يدي ، ثم سمعته عند الصباح يغرد شامتاً مع طيور الصباح .
 ورب قافية أعابها في صبر وجلد كما يعالج الملاح سفينة في
 بحر مائج ، فلا أكاد أظفر بها إلا بعد أن تكون قد تقطعت
 حبالى وتكسر شراعى . ليس الشعر بالسهولة التي تظننها ياسيدي
 عائشة ، وإلا هان أمره ، وكسدت سوقه ، لأن قيمة كل شيء

بما يبذل فيه من جهد ، وكلما صعب منال الشيء غلا ثمنه وكثر
التنافس فيه . أما أنى لم أصف مشاهد مصر ، ولم يهزنى نيلكم
الفياض ، ولا هرمكم الرابض فى ذيل الصحراء ، ولا حدائقكم
الزاهية الفيحاء ، فلو تعلمين ما بى لأقللت من ملامى . أنا فارس
با سيدتى قبل أن أكون شاعراً . ثم نظر إليها طويلاً وقال :
أنا رجل جم المطامع بعيد المرامى . إن لى فى الحياة مطلباً أسمى ،
طالما خفت أن يطغى عليه الشعر فيهدى من عزمته ، ويقصر من
وثبته ، وطالما خشيت أن أقنع عنه بالشعر فأخرج من هذه الدنيا
ولم أعمل شيئاً إلا أن يقول الناس : كان أبو الطيب شاعراً مجيداً .
أنا لا أريد هذا يا سيدتى . لذلك اقتصرت من الشعر على القدر
الذى يكفى لبلوغ ذلك المطلب ، ونيل تلك الغاية . هذا سر
لم أذعه إلا لك . ثم ابتسم وقال : واعلمى أنى لم أقصد الملوك
إلا لأكون كالملوك . فنظرت إليه عائشة نظرة فيها ذهول وفيها
حيرة وقالت : أنت بنيل هذه الآمال البعيدة حقيق يا أبا الطيب .
وهنا أقبل الجمع عليهما ، ومدت الموائد وفوقها كثير من
ألوان الطعام ، فأكلوا بين الأفاكية والطرف النادرة . ثم جىء
بأواني الشراب ، ومر السقااة على جماعة الشاربين . فأبى المتنبي
أن ينال من الخمر شيئاً ، وألح عليه القوم فلج فى الإباء ، وطلبوا
من عائشة أن ترجوه أن يشرب فأبت ، واصطف القوم حول
خمر المغنية فأصلحت عودها وغنت بقول ابن رشدين :
قل لمسولاي منعيما لم هجرت المتيا ؟

أنت أعطشتني إليه لك وأبكيتني دما !
 وكانت لؤلؤية الصوت ، حلوة المذهب ، فتملك الطرب
 القوم ، وزادت النشوة في صخبهم . والمتنبى هادئ مطرق ،
 كأنه لا يشعر بما حوله . ثم طلب منها الجمع أن تغنى بشعر
 لابن أبي الجوع فانطلقت تغرد :

يا أطهر الناس روحا وأطيب الناس راحا
 هات اسقني أو ترائي لا أعرف الأقداحا
 فهاج القوم من الطرب ، وقذف بعضهم بالعمائم ، وقام
 سكران يلح على أبي الجوع في أن يشرب حتى لا يعرف الأقداح
 ثم غمز ابن رشد بن لخم بعينه متجهاً نحو المتنبى فأخذت تصدح :
 لبسن الوشى لا متجملات ولكن كى يصن به الجمالا
 وضفرون الغدائر لا بحسن ولكن خفن في الشعر الضلالا
 وكان القوم يتمايلون مع الأنغام ، لجمال المعاني وحسن
 الإيقاع . والتفتت عائشة إلى المتنبى وهمست :

— هذا غزل من القلب يا أبا الطيب ، وليس تصوير فنان
 فحسب ، لأنى أحسن فيه حرقه العاشق . فالتفت إليها وقال :
 — هذا شعر الشباب يا سيدتى فضحككت في دهش وقالت :
 عجيب أن تدعى مفارقة الشباب وأنت لا تزال في ربيع الشباب الزاهر .
 — ولكن مطامعى تغرى بى الشيب والهزم ، فأسرعت تقول :
 — دع مطامعك الآن لأننا لم نتبدل هذه الليلة إلا لنذهب
 عنك الوحشة والهموم .

— جزاك الله خير الجزاء يا سيدتى . وبعد أن طال به المقام طلب الإذن بالانصراف ، فقام الجمع احتفاء به ، وأمر ابن رشد بن عبيده بالسير فى ركابه ، وخرج مشيئاً بالإجلال .

وتفرق القوم ، وانقض سامر اللهو ، وصعدت عائشة إلى حجرتها لتستريح بالمنام إذا ظفرت بالمنام . ولكنها جلست فى سريرها ذاهلة اللب ، مروعة القلب ، تتقاذفها الأوهام ، وتعبث بها الظنون ، ما هذا الهجوم العنيف الذى غزا فؤادها دون أن تعد له العدة أو تأخذ الأهبة ؟ لقد كانت طول حياتها تعتر بأن قلبها حصن لا ينال ، ونجم لا تمتد إليه آمنيات الخيال ، وتفاجر بأنها برئت من غرائز النساء التى تدفعهن إلى الاستجابة إلى إشارات الرجال الآثمة ، وأعينهم الخائنة . تلك الغرائز التى تبيع الجمال رخيصاً ، وتمزق الحياء كما يمزق البرق حجب الغمام . كانت تخالط الرجال وتجالسهم فى مجالس اللهو حيناً ، وفى مجالس الأدب أحياناً ، وهى كأنها الملك السماوى الطاهر ، الذى خلقه الله من نور ، وطهر قلبه من وساوس الإثم وذنس الشهوات . فكانت العيون تغضى أمام جمالها لإجلالاً ، والنفوس تسجد عند مشاهدتها خشيّة وخشوعاً ، ولم يخل مجلس من تحدث الناس بطهارتها وعفافها ، وصور جمالها البارع من أن تمتد إليه يد طامع . وكانت نساء المدينة وبناتها — على رغم الحقد الذى يأكل قلوبهن — لا يملكن إلا أن يطأطن لهذا الجمال المترفع عن أن يتزل فى سوق المساومات ، أو تنهشه أعين الحاطبات .

وكم حام الشبان حول قدسها فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون .
 وكم بذل أبو بكر بن صالح — أعظم رجل في الدولة بعد ابن
 الفرات — من وسيلة ، وكم ساق من رجاء ، وكم تساقطت دموعه
 على قدميها ، فلم يجد منها إلا الرفض والنفاء .
 طافت هذه الخواطر بعائشة وكانت تودع كل موكب من
 مواكبها بدمعة حزن وزفرة أنين . ثم عادت تقول :

ماذا جرى لعائشة النافرة الشموس ؟ كيف ذلت لسلطان
 هذا الرجل ؟ وكيف قذفت بكبريائها لتلاقى من كبريائه صخوراً
 أصم ، لا تزعزعه عواصف الغرام . إنها فتحت له قلبها هذه
 الليلة فأغلق في وجهها كل باب . وبدأ من جمالها ما يكفي
 لإثارة إبي الهول ، ولكنه ظل بجانبها جامداً كأنه كان ينظر إلى
 عجوز ورهاء ، ويلى من الحب ويلى ! لقد صنته عن كل محب
 معمود يستعذب الموت في حي ، لأقذف به بين يدي شاعر
 لا يحس ! رفضت الجاه والمال والشباب والوسامة لأبيع نفسي
 رخيصة مزجاة لرجل جوارب آفاق جاوز الأربعين ! ثم من هذا
 الرجل ؟ إنه ينظر إلى كما ينظر إلى لعبة لم يحكم صنعها ، ويستمع
 لي كما يستمع لبعوضة تطن ، ويستدبر محراب حبي كاقراً
 جحوداً ، لا يؤمن بجمال ولا تهزه عاطفة . ويلى من الحب ويلى !
 ماذا يقول الناس ؟ وبم تتحدث السوامر ؟ سأكون سخرية
 الجامع ، ومتندر المحافل ، وسيقول النساء إن عفافها كان رياء ،
 وتبتلها كان ميناً وزوراً . ثم أطرقت طويلاً ورفعت رأسها كأنها

أفاقت من حلم مزعج وقالت :

ومالى أهتم بمحدث الرجال وثرثرة النساء ؟ إننى أحببت
رجلاً عظيماً ، وتعشقت فنا رقيقاً ، إننى نفرت من جمال المادة
المظلمة ، إلى جمال الروح الوضاعة . إننى لا أحب الغيون
الدعج ، ولا الخواجب الزج ، ولا الثغر اللؤلؤي ، ولا القوام
السمهري ، ولكنى أحب العبقريّة المتألّثة ، والنبوغ الفاتن ،
والرجولة الوثابة ، والنفس الطموح . إن أحمد بن الحسين رجل
لا كالرجال ، فليس بدعاً أن يكون حبي له حباً لا يشبهه حب ،
ولا يماثله غرام . وإذا كان قلبه اليوم لا يستجيب للحب فإن
طول المعاشرة قمين بأن يلين قياده ، ويروض صعبه ، حتى
يصبح طيعاً ذلولاً . إنه بعد الليلة سيكثر من زيارتنا وسيجد من
الأنس بنا ما يرسل نفسه على سجيّتها ، ويطلق عواطفه المكبوتة ،
والزمان طيب كل شيء في هذه الدنيا ، وقاهر كل جبار ، حتى
لو كان أبا الطيب المتنبي . ثم أغمضت عينيها فسبحت في عالم
فسيح من الأحلام .

ومرّت الأيام وكان أبو الطيب يمر بين الحين والحين بدار
ابن رشدين ، ويجد من رقة عائشة وأدبها وروعة جمالها ما يملأ
قلبه سروراً . وجلس مرة إليها يسمعها قصيدته التي سينشدها
كافوراً ، فلما بلغ قوله :

كم زورة لك في الأعراب خافية

أدهى وقد رقدوا من زورة الذيب

أزورهم وسوادُ الليل يشفع لي

وانثنى وبياضُ الصبح يغري لي

نظرت إليه وقالت : متى كانت هذه الزورة يا أبا الطيب ؟
فالتفت إليها باسمًا وقال : هذه زورة الخيال يا سيدتي . فإن
رجلي لم تحملني مرة إلى فاحشة ، فضحكت وقالت : صدق
الله العظيم : « والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد
يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون » ثم انطلق يقرأ حتى إذا بلغ قوله :
ما أوجهُ الحضر المستحسناتُ به

كأوجه البدويات الرعابيب

حسنُ الحضارة مجلوب بتطرية

وفي البسداوة حسن غير مجلوب

صاحت عائشة فيما يشبه الهلع وقالت : انظر أبا الطيب ،
فهل ترى في وجهي تزييناً أو تطرية ؟ فأطرق قليلاً ، وكأنه ظن
أن حديث الأدب سينحرف إلى غير وجهه ، وقال :

— إن حسنك من صنع الله يا سيدتي ، وأرجو أن يصونه الله .

— إن هذا الحسن يهيم بحسن آخر لا يرى بالعين .

— يهيم بحسن لا يرى بالعين ؟

— نعم يهيم بحسن الروح وجمال العبقرية .

— هذا خير أنواع الحب .

— ولكن صاحب هذه العبقرية نفور شامس لا يريد أن

يلقى عناناً . فأطرق المتنبى ثانية وقال :

— يا عائشة إن قلبي نهبت المطامع ، وتقسمته الآمال ،
وأخشى ألا يجد فيه الحب متسعاً للهو والمرح .
— إن حبنا حب قدسي ملائكي ، ليس فيه إزبة للهو والمرح .
— لقد كنت دائماً أذود عني طائر الحب خشية أن يصدني
عما يعتلج في نفسي من مطامع ، وحينما رأيتك أول مرة التمع
في قلبي بصيص من الهوى فأخمدته ، وصاح صوت في أعماق
نفسي فأسكته ، ذلك لأنني رجل وهب حياته للمجد ، وألقي
بنفسه بين شفار السيوف .

تغرب لا مستعظماً غير نفسه

ولا قابلاً إلا الخالق حكما

ولا سالكاً إلا فؤاد عجاجة

ولا واجداً إلا المكرم طعما

يقولون لي ما أنت في كل بلدة ؟

وما تبتغي ؟ ما أبتغي جل أن يسمي !

— إني لا أحبك إلا لهذا ومثله . أحبك حباً عذرياً قدسياً تنزه
عن دنس الدنيا ، وسما فوق كل مأرب ، فهل تعاهدني على هذا ؟
— أعاهدك يا سيدتي ، إن مثل هذا الحب هو الذي طلبه
أكثر الناس فلم يجده فزهّدوا في الدنيا ، وزهدوا في الحياة . وإن
مثل هذا الحب هو الذي ينفخ في المرء روحاً علوية تدفع به إلى
عظائم الأمور ، وتنير له طريق المجد ، الآن أصبحت مصر لي
جنة بعد أن كانت جهنماً ، والآن أجد ما يعزيني في هذه النكبة

الفادحة ، التي قذفت بي إلى مصر لأمدح الأسود .
وبعد قليل خرج وعطفه يهتز تيباً ، ووجهه يفيض بشراً ،
ولعله كان يقول :

يردُّ يسداً عن ثوبها وهو قادر
ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد

دسائس

مرت شهور والمنتبي ينعم بحبه ويكثر من ازديار صاحبتة ،
وشاع بين الناس أمر حب عائشة له ، وتحدث بذلك الأدباء
في مجالسهم . ودهم الخبير أبا بكر بن صالح فصعق له ، وغلى
مرجل غيظه ، وكان ذلك حين دخل عليه ابن الفرات يوماً وهو
يقول باسماء :

— لقد طار عصفورك من القفص يا أبا بكر .

— ماذا تقصد يا جعفر ؟

— أقصد أن نسراً جارحاً طار إلينا من الشام ، ثم ما زال
يحوم حول العصفور حتى اختطفه ، وأنشبت فيه مخالبه .

— أفصح بالله يا ابن الفرات .

— إن المنتبي سبي قلب عائشة ، أو هي التي سبت قلبه ،
وقد علمت أنهما يلتقيان في دارها كل مساء ، لرواية الشعر
والتحدث في الأدب .

— ممن علمت هذا ؟

— من أهل مصر جميعاً ، فإن الأمر لم يعد سرّاً ، وإن الصبيان في الأزقة يتغنون بهذا الحب ، ويلفقون له أغاني وأهازيج يترنمون بها : أفق يا أبا بكر فما يوم حليلة بسر .
— العابثة الماجنة ! لقد قلت حيناً ازدرت حبي ، وسخرت من دموعي ، إنها امرأة شاذة لا إربة لها في الرجال ، فكيف تهفو الآن إلى هذا الأفاق ، وتبذل له أغلى كنوز مصر ؟ ويل لهما مني !

— رفقا بالفتاة يا أبا بكر ، فإن قلوب النساء من قوارير ، وصعب النساء إلى مياسرة ، كما يقول أبو نواس الخبيث ، وماذا تفعل أية فتاة حيال إغراء شاعر فتاك يمزق أفئدة النساء كما يمزق رسالة طال عليها الجهد ؟

— لا بد من الانتقام من هذا الوغد اللثيم .

— وكيف ننتقم منه ؟

— الأمر في غاية اليسر ، فإن في شعره الذي يتبجح بالإجادة فيه حبلاً تكفي لحنقه .

— كيف ؟

— هذا ما ستعرفه يا ابن الفرات . أين مولانا الأستاذ الآن ؟

— في قاعة الحكم .

— هلم بنا إليه . وانطلقا مسرعين وأبو بكر يتحرق غيظاً ، وابن الفرات يبتسم في شماته ، لدنو ساعة انتقامه من المتنبي ، لأنه تعاضم عليه ، وتسامى عن مديحه . ودخلا على العبد فابتسم

لهما ابتسامة الأفعى . ثم قال :

— أهلاً بالوزيرين ! هل من حاجة ؟ فانطلق أبو بكر
يقول هذا المتنبي الشاعر يا مولانا أخشى أن يثير قدومه علينا
شراً مستطيراً .

— وأين عيونك وجوانيسك ؟ وأين أصحاب الأخبار الذين
تباهى بأنهم يعلمون همسات الصدور ، وخلقجات الخواطر ؟
— من هؤلاء يا مولانا علمت كل شيء .
— ماذا علمت ؟

— علمت أنه يتصل في السر بفاتك عدوك اللدود ، وأن
الرسل بينهما جائية ذاهبة ، وأنه اجتمع به منذ أيام في الصحراء
بين مصر والفيوم ، في جتح الليل البهيم ، وأنه جرت بينهما
محادثات ، وأخشى أن أقول مفاوضات .

— فاتك المجنون ؟

— نعم يا مولانا هو فاتك نفسه الذي حاول أن ينازعك
الملك والوصاية على ابن مولانا ، فنفيته إلى الفيوم .
— وفي أي شيء يفاوضه هذا الشاعر ؟

— يفاوضه في الملك . يفاوضه على أن الدولة تكون بينهما
بالسوية : لفاتك قيادة الجيوش ، ولهذا الاتفاق حكم البلاد وسياستها .
وهنا اكفهر وجه كافور ، وأخذته رعشة من الغضب حاول
كتبها . ثم قال :

— وأين يذهب كافور ؟

— هذه يا مولانا أوهام لا يمكن أن تحقق ، وإن سيوفنا
وقلوبنا سور حول عرشك الكريم .

— هذا المتنبي لم يفتر منذ قدم علينا من مضايقتنا ، والإلحاح
علينا في أن نوليّه ولاية ، كأنه جاء إلى مصر فاتحاً لا شاعراً
مستجدياً . لقد أكرمنا وفادته ، وأجزلنا له الصلوات ، ونثرنا
فوقه الذهب والفضة ، ولكن شيئاً من هذا لم يقنعه ، ولم ينهه
من عزيمته . وإني أعرف هذا الصنف من المخاطرين إنه — فما
يزعمون — ادّعى النبوة ، وهل يصعب عليه إذا نال ولاية أن
يدّعى ملك مصر كلها ؟ !

— إن كل قصيدة له في مدح مولانا ليست إلا إلحاحاً في
طلب هذه الولاية ، ولا يقصد اللثيم من هذا إلا أن يصارح
الناس بأن مولانا لا يستحق المدح ، وأنه إنما دفع إلى مدحه
ليتوصل إلى مآربه . ثم إنه يتدرج في شعره مطالباً بهذه الولاية
تدرجاً خبيثاً ، وأعتقد أن مرماه البعيد أن يجعل من هذه الولاية
ذريعة لالتهايم مصر . يقول أولاً :

يأيها الملك الغساني بتسمية

في الشرق والغرب عن وصف وتقليب

أنت الحبيب ولكني أعوذ به

من أن أكون محبباً غير محبوب

ثم يلحف في قصيدة أخرى فيقول :

فإن نلت ما أملت منك فربما شربت بماء يعجز الطير ورده

ووعسداك فعلٌ قبل وعد لأنه
 نظير فعال الصادق القول وعسده
 إذا كنت في شك من السيف فابله
 فإما تُنْفِيه وإما تعدُّه
 وما الصارمُ الهنأى إلا كغيره
 إذا لم يفسارقه النجسادُ وغمده
 ثم تدفعه العجلة وترجه المطامع إلى أن يقول في قصيدة
 أخرى :

ولو كنت أدري كم حياتي قسمتها
 وصيرتُ ثلثيها انتظاراً فاعلم
 ولكن ما يمضي من العمر فائتٌ
 فجسداً لي بحُظِّ البادر المنعم
 وقد بلغ القمة في الإلحاح وسوء الأدب في حق مولانا في
 قصيدة عيد الفطر حين يقول :

أبا المسك هل في الكأس فضل أنا له
 فإنني أغني منسداً حين وتشرب ؟

وهبت على مقسداً كفى زماننا
 ونفسي على مقسداً كفيك تطلب

إذا لم تُنْطِ بي ضيعة أو ولايسة
 فجسودك يكسوني وشغلك يسلب

فالتفت كافور إلى ابن الفرات وقال : ما رأيك في هذا الشعر ؟

— هذا شعر لا يسمعه سامع إلا اعتقد أن مولانا بخيل على شعرائه وقصّاده ، وأن شاعره في غاية الجرأة عليه والاستهانة بمكانته .

— إنه رجل قليل الأدب .

— ثم إنى أعتقد يا مولانا أن هذا الرجل يلبس بيننا غير ثوبه ، وأنه جاسوس أرسله إلينا ابن حمدان ليطلع على أسرار دولتنا ، وينقل إليه مواطن الضعف فيها . وابن حمدان لا ينسى هزيمتكم له في دمشق ، وهو — وقد أكل قلبه الحقد — يريد أن يثأر لنفسه ، وأن يمهّد بلحيثه سبيلاً لفتح مصر .

— ذلك أبعد إليه من نجوم السماء .

— من غير شك . ولكن ما معنى أن يدّعى هذا الشاعر أنه غاضب سيف الدولة ، وناصبه العداوة ، وفرّ من حلب تحت أستار الليل ، ثم لا يكاد ينشد قصيدة أمام مولانا إلا وفيها حنين لسيف الدولة ، وأسف على فراقه . إن هذه في رأي بدّوات طفرت من الشاعر بعد أن بالغ في كتمانها فظهرت على الرغم منه في فلتات لسانه . ففي أول قصيدة أنشدها أمام مولانا ترك مصر وصاحبها واتجه بتشوقه وهيامه إلى حلب وصاحبها .

ثم جرى بعد ذلك في شعره على هذا النسق فهو يقول :

فراقٌ ومن فارقتُ غيرَ مذلِّمٍ
 وأمٌّ ومن يمتُّ خيرَ ميسمٍ
 رحلتُ فكم بك بأجفانِ شادنٍ
 علىَّ وكم بك بأجفانِ ضيغمٍ
 وما ربةٌ القُرطِ الملبِّحِ مكانه
 بأجزعٍ من ربِّ الحسامِ المصممِ
 فلو كان ما بي من حبيبٍ مقنَّعٍ
 عذرتُ ، ولكن من حبيبٍ معممٍ
 رمى واتَّقَى رمي ، ومن دون ما اتَّقَى
 هوَى كاسرٌ كفى وقوسى وأسهمى
 ثم يرمى بآخرِ قناعٍ فيقول وكأنه يخاطبُ ابنَ حمدانٍ :
 أغالبُ فيكَ الشوقَ والشوقُ أغلبُ
 وأعجبُ من ذا الهجرِ والوصلِ أعجبُ
 أما تغلَطُ الأيسامُ فيَّ بأن أرى
 بغيضاً تُنأى ، أو حبيباً تقربُ ؟
 عشيةٌ أحفى الناسَ لي من جفسوته
 وأهدى الطريقين التي أتجنبُ
 أتعرفُ يا مولانا من أحفى الناسَ به ؟ هو ابنُ حمدانٍ .
 وهل يعرفُ مولانا أهدي طريقه التي يتجنبها ؟ هي طريقُ
 حلب .

— ويل للمرائى الفاجر ؟ لقد كنت أظن أن الإنسان عبد

الإحسان ، ولكن يظهر أن من الناس من تطغيهم النعمة ،
وتبطرهم المودة . وكل هذا الشعر لا يساوى عندي هذه الذبابة
الحائرة فوق زجاج النافذة ، فإنى لا آبه له ، ولكن الذى يهمنى
حقاً تلك المؤامرة التى ينسج خيوطها مع فاتك . نخذ حذرنا
يا أبا بكر وابعث جواسيسك حول الفيوم ، وفى حواشى الصحراء ،
واجعل على كل عابر عيناً حتى لا يمر طائر بين البلدين إلا
عرفته . أما أنا فساظهر للشاعر كأننى لا أعلم شيئاً ، وسأبالغ
فى إكرامه حتى تهدأ نفسه ويطمئن ، فإننا نخشى أن يفلت
من أيدينا . ومن الحكمة أن نعتقله من حيث لا يشعر ، وأن
نجعل له قيوداً من الذهب لا من الحديد . إنه لو فرّ منا كما فرّ
من ابن حمدان الأحمق لملأ الأرض بهجائنا ، ولأصبح اسم
كافور سبّة الأبد ، وأضحكة الأجيال . أبسط له وجهك
يا ابن الفرات ، وانثر الحب لطائرك حتى يقع فى الفخ .
وما كاد يتم عبارته حتى دخل الحاجب يقول إن المتنبي
يطلب مقابلة مولانا . فالتفت كافور إلى وزيريه وهو يغمز
بعينه فى ابتسامة مأكرة ، وقال : دعه يدخل .
دخل المتنبي فقايله كافور ووزيراؤه بحفاوة ، فلما اطمأن
بهم مجلسه قال :

— لقد بعث إلى أبو شجاع فاتك يا مولانا منذ قدمت مصر
برسائل محبة وترحيب ، ثم والى على من هباته وصلاته ما أثقل
ظهري ، وأوهن كاهلي ، حتى رأيت أن ترك مديح مثله لؤم

لا يليق بمثلى . لهذا جئت يا مولانا أستاذك في مديحه وأداء
هذا الدين ، الذى أصبحت لا أستطيع احتماله : فهل يأذن
مولانا لشاعره بأن يشدو بمديح أحد رجاله المخلصين ؟
فالتفت كافور إلى ابن الفرات ، وغمز بعينه بحيث لا يرى ،
وقال :

— ما عليك من بأس يا أبا الطيب . فإنه يسرنى أن يستحق
أحد قوادى مديح مثلك . قل فيه يا أبا الطيب ما تشاء ، وأجد
ما طاولتك الإجابة .

ثم اتجه إلى ابن الفرات وقال : لقد جاءتني اليوم رسالة من
أهل صيداء يشكون فيها من واليهم ، ويعددون مظالمه ، وأخشى
أن يكونوا في شكايتهم صادقين فقد سمعت من قبل كلاماً
كثيراً يدور حول هذا الوالى وأنه يعبث بالحقوق ويأخذ الرشا .
أسمعت بشيء من ذلك يا جعفر ؟

— نعم يا مولانا . وقد حاولنا إصلاحه بالنصيحة والصبر ،
فكاد يفسد علينا أمرنا بالتمادى في ظلمه . وهنا التفت كافور إلى
المتنبى وقال : ما رأيك في ولاية صيداء ؟ إنها ولاية واسعة وافرة
الخيرات .

فكاد المتنبى يطير من فوق كرسيه فرحاً ، ووقف خاضع
الرأس أمام كافور كأنه الراهب في محرابه ، وطفق يقول :
— إننى سأكون أعدل وال لها ، وأوفى وال لك يا مولانا .
فابتسم كافور وقال : سننظر في الأمر يا أبا الطيب والأمور

مرهونة بأوقاتها . وسيكون كل شيء خيراً إن شاء الله .
وانصرف المتنبي وهو يكاد يخرق الأرض بتقديمه تيباً وكبراً ،
ويملاً الفضاء بصدره المنتفخ زهواً وعجباً . إن هذه النخيل التي
يداعبها الهواء في طريقه إنما تميل نشوى للنبا العظيم ! وقمم المقطم
المطلّة عليه إنما تمد آذانها لتلقف الخبر الخطير ! والأهرام
ما صمدت لعوادي الزمان طيبة هذه القرون إلا انتظاراً لذلك
المجد الباذخ ! والنيل لم تهامس أمواجه إلا بأنباء هذا الحادث
الجليل ! إنه قدم مصر لأجل هذا . وتبدل إلى مدح الأسود لأجل
هذا . ولا في صنوف الاضطهاد من عظماء مصر وعلمائها لأجل
هذا . ولا شك أن العزة لا تنال إلا بشيء من الذل ، والعظمة
لا تقتنص إلا بخضوع النفس . لقد كان مصيباً حقاً حينما هجر
سيف الدولة وقصد كافور . ولطالما ظن أنه ضل السبيل ،
وتنكب الصواب ، وأنه باع نفسه للأبالسة ، وأن الأسود إنما
احتال لاجتذابه إليه ليجرد سيف الدولة من أمضى سلاح هو
سلاح الشعر ، الذي تعتر به الدول ، ثم ليحتبسه في مصر شاعراً
ذليلاً مأجوراً . لطالما ظن هذا ، ولطالما عنت نفسه ، ولطالما
جلس في فراشه في الليل البهيم وهو يقلّب كفيه أسفاً ، ويرسل
أنفاسه حشرات تلو حشرات ، ولطالما صور له الخيال أن الأسود
يعبث به ويمنيه الأمانى كذباً وزوراً ، وأنه يشد رقبته بخيط
من الوهم ، ويرقصه في مجلسه على أنغام آمال هي أبعد من مناط
الثريا ، وأكذب من هذيان الأحلام . لقد ظلم العبد . لقد كان

العبد مظلوماً حقاً . إنه رجل وفي صادق أمين . إنه كان يطاوله
ليختبره ويبلوه ، والولايات شأنهن عظيم . ولا تكفى أشهر لاختيار
من يصلحون لها . فالآن وقد درس نفسي ، وألم بنواحي عظمتي ،
أخذ يعلن ما أخفى ، ويظهر بما كتم . ثم وقف المتنبي عن حديث
نفسه ومال برأسه قليلاً ، شأن المفكر في أمر مفاجئ ، وقال :
ولكن ماذا سيكون أمري مع فاتك الذي عاهدته في الصحراء
على أن أكون له عوناً في انتزاع الملك من كافور برأى وسيف
وشعري ، ووعدني بأخصب ولايات مصر وأدرها خيراً ؟ في
الحق إني تعجبت المفاوضة مع فاتك ، وكان من الحزم أن أصبر
قليلاً حتى أياس تمام اليأس من كافور . ولكن مالي أبيع
حاضراً بغائب ؟ ومالي أطلق أملاً في يدي لأنتظر أملاً حائماً ؟
ومالي أضيع حقيقة واقعة بوعد موهوم ؟ لا لا إني سأخلص
لكافور وسأكون أوفى خلصائه وأصدق أمرائه .

وبينما هو في الطريق إذ التقى بصديقه عبد العزيز الخزاعي ،
فحياه تحية المحب المشوق ، ثم سأله :

— من أين وإلى أين ؟

— قدمت بالأمس من بلبس لزيارتك ، وعرض لي أن
أزور في الصباح شيخ الشافعية عبد الله الناصح بالجامع العتيق ،
وقد كنت الآن قاصداً إلى دارك .

— وماذا رأيت في الجامع العتيق ؟

— يا أبا الطيب يجب أن تتقى علماء هذا الجامع ، ويجب

أن تتقى منهم خاصة هذا العالم الموسوس أبا بكر الكندى الذى
يلقبونه بسيبويه .

— وماذا أعمل له ؟

— تخفض جناحك ، وتنه من كبريائك قليلا . إن مصر
يا أبا الطيب ليست كخلب . إنها عش العربية ، وموطن العلم
والأدب . فإذا كنت فى حلب قد أرسلت أشعارك على فطرتها
جريئاً غير هيّاب ، ففكر هنا ألف مرة فى كل بيت تقوله .

— ماذا تريد بهذا يا ابن يوسف ؟

أريد يا سيدى أن أكون لك ناصحاً ، وإن غلظ عليك
نصيحى . وأريد أن أقول : إثنى حينما دخلت الجامع فى هذا
الصباح ، رأيت حلقة من البطالاب غاصة بمن فيها حاشدة ، وقد
توسطها أبو بكر الكندى وهو يصيح : اسمعوا يا أهل الفهم
والمعرفة ما يقوله شاعرنا الحديد ! اسمعوا ما ابتكره فى فن المديح
هذا المتنبي . الكاذب ! إنه لا محيد له عن إحدى خلتين : إما
أنه يسخر من عقول أدباء هذا البلد ، ويرى أنهم أغبي من أن
يدركوا ما يقول ، وإما أنه سخيّف أبله لا يعرف مرأى الكلام .
وهنا ضجّ المجتمعون صائحين : قل أبا بكر ولا تطل علينا .
أسرع يا صاحب الحمار . هات ما عندك . فعاد يقول : يمدح
هذا المتنبي مولانا بقوله :

وما طربى لسا رأيتك بدعة

لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

أرأيتم شاعراً منذ أن قال امرؤ القيس : « قفا نبتك من
 ذكرى حبيب ومنزل » قال لمدوحه : إنني لم أعجب لطربي
 عند رؤيتك أيها الأمير ، لأنني كنت أؤمل أني سأملأ الدنيا
 ضحكا حين أراك . إن المتنبّي أيها الطلاب قدم إلى مصر ليفرّج
 عن نفسه برؤية أميرنا المضحك ! إنه — جزاه الله بما يستحق —
 جعل من أميرنا قرداً يتزاحم الناس عليه ليروا ألاعيبه فيطربوا
 ويضحكوا . وهنا أغرق القوم في الضحك والجلبة ، وارتفع
 صوت نحيب منهم يصيح : إن الأمير لا يفهم هذا الكلام
 الموجه وعلى علمائنا أن يفهموه ، حتى ينال هذا الرجل
 ما يستحق . وما كاد يسكت حتى مدّ أبو بكر ذراعيه طالباً
 السكوت؟ وقال : ثم من علم هذا الشاعر العربية حين يقول :
 « لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب ؟ »

فيرفع الفعل « أطرب » وهو منصوب لا مناص . لأنك
 إذا جعلت الفاء عاطفة وجب نصبه بالعطف ، على أراك ،
 وإن جعلتها للسبب وجب نصبه بأن مضمرة . فكيف ساغ لهذا
 الرجل رفعه ؟ فصاح طالب : قد يكون الفعل معطوفاً على
 « أرجو » وهو مرفوع . وهنا قهقهه الشيخ حتى سقطت عمامته ،
 وأجاب : هذه حيلة العاجز يا ولدي . لأن الطرب مترتب على
 الرؤية لا على الرجاء .

ولم أطق يا أبا الطيب أن أصير على استماع أكثر من هذا ،
 فأسرعت بالخروج من هذا المسجد . تدبر أيها الأخ في أمر

تسكت به هذا المجنون . فإن الناس ينقلون أخباره ونوادره ،
وإذا وصلت هذه الأخبار إلى القصر ساءت العقبى .

كان عبد العزيز يحادث المتنبي وهو سابع في بحر من الفكر
عميق ، وقد اصفر لونه ، واختلجت عضلات وجهه ، لأنه في
الحق كان يخشى أن يفسد عليه هؤلاء السفهاء أمره مع كافور ،
بعد أن بلغ لديه منزلة الرضا ، وأصبحت الولاية منه قاب
قوسين ثم اتجه إلى عبد العزيز وقال :

— سيكون لي مع هؤلاء شأن آخر . وربما أسكتهم عني
بعد أيام سكوتي عن قول الشعر جملة واحدة .
— كيف ؟ فابتسم وقال :

— ستعلم ذلك قريباً يا ابن يوسف . هلم بنا إلى دار ابن
رشددين . وانطلقا حتى بلغا الدار فلقيا بها صالحاً والشريف
إبراهيم العلوي . وأقبلت عائشة مسرعة وكأنها البدر المشرق
زخرجت عنه حجب الغمام . وكان المتنبي على غير عادته باس
الوجه ، منبسط النفس . فابتدره الشريف سائلاً : أين كنت
هذا الصباح يا أبا الطيب ؟

— كنت عند كافور أستأذنه في مدح فاتك . فأطرق
الشريف طويلاً ثم قال :

— لقد تعجلت في هذا يا أبا الطيب . إن كافوراً لا يغيض
في مصر إلا رجلين : ابن سيده وفاتكا . وقد نهى أن يذكر أحده
في قصره اسم فاتك إلا أن يأتيه البشير بموته ، وحينئذ يسوغ

للبشير أن يقول له : مات فاتك . فكيف بحقك قذفت بنفسك
في هذه الهوة ، وألقيت بها في هذا المأزق ؟ وبم أجابك ؟
فبهت المتنبي وتلعثم ، وقال : أذن لي بمدحه .

— وهذه هي الطامة الكبرى ، وهذا هو الشر المستطير ،
والبرق الذي يسبق الرعد ، والسكون الخفيف الذي يتقدم العاصفة .
إن الهر الخبيث يداعب الفأر قبل أن يثب . والثعبان الماكر يهز
رأسه لفريسته قبل أن ينقض عليها . فأسرعت عائشة في وجل
وهي تصيح : ماذا تقول يا سيدى ؟

— إن الرائد لا يكذب أهله يا عائشة . ولقد علمت من
دهاء هذا العبد وحيله ما فيه العجب العجاب .
— كيف بالله ؟

— لقد عودنا هذا الكافور أنه لا يضحك إلا إذا نوى
الغدر ، وعهدناه لا يلتقى لصيده الحبل طويلاً إلا ليرتكس فيه .
وهنا وثب المتنبي واقفاً وهو يقول :

— لقد بالغت في سوء الظن بكافور يا سيدى : إنه وعدنى
اليوم بولاية صيداء . فأسرع عبد العزيز سائلاً :
— بعد أن استأذنته في مدح فاتك ؟ !

— نعم . فقال الشريف :
— هذا يؤيد رأى ، ويحقق في الأسود سوء ظنى . وكيف
جاء ذكر هذه الولاية ؟

— قال كافور : إنه وصلت إليه رسالة من أهل صيداء

يشكون فيها من واليهم ، ويصفونه بكل ما يشين . وأيد ابن
الفرات شكواهم ، وأنه نصح لهذا الوالى كثيراً فلم يرعو عن
غوايته . وحينئذ التفت إلى كافور باسمًا ، وسألني عما أرى في
ولاية صيداء ، فقبلت وشكرت .

— هل أسند الولاية إليك بالفعل ؟
— كأنه أسندها إلى لأنه قال إنه سينظر في الأمر . وإن
الأمور مرهونة بأوقاتها : فغمغم الشريف في ألم وحسرة وقال .
— كل هذا كذب من الأسود وخداع . فلا ظلم الوالى أهل
صيداء ، ولا شكاً أهلها من واليهم ، ولا عزم كافور على عزل
الوالى وتوليته مكانه . ولكنه ماهر في ابتكار الكذب وارتجال
الأنخداع . ولو كنت لا أعرف هذا الوالى لعلمت من أسلوب
العبد في تناوله هذه الأمور أنه كاذب مائن ، أما وأنا به جد
علم ، وأعرف من أخلاقه وسيرته ما يرفعه إلى مرتبة العمرين ،
فلا يخالجنى شك في أن الرجل خدعك بهذه الأنخلوقة ، والله
وحده يعلم ما وراءها من كيد ومحال . وأكبر الظن أن بعض
أعدائك دس لك عنده ، لأن هذه المجاملة ، وهذه المودعة ،
لا تفسر عندي إلا بهذا . فخذ حذرك يا أبا الطيب . وكن معه
كملاعب النمر ، يقرب منه والخنجر لا يفارق يمينه . أما الولاية
وأشباهها فأضيقها إلى خيال الشعراء ، فإن الرجل في هذه الناحية
أمهر شاعر . وهنا تملل المتنبي وقال حائقاً :
— إن بيني وبينه أيام إن لم يف بوعده فيها عرفت أنه

كاذب أفك ، وفي شعري علاج ناجع لأمثال هؤلاء .
 — احتسب أبا الطيب ، وقدر لرجلك قبل اللطو موضعها ،
 فإن الصل المصري لا تنفع في لدغته الرقية ، ولا يجدي الدواء ،
 وجمال الرجل حتى تجد من يديه مخلصاً .

بدا الغم والحزن على وجه المتنبي ووجوه أصحابه ، وتهدت
 عائشة وقالت في صوت خافت : لعل شدة خوف الشريف على
 سلامتك يا أبا الطيب هي التي دفعته إلى أن يصور لك الخطب
 جسماً ، والأمر عظيماً ، فأنضج عنك الخوف ، فقد يكون الوهم
 قد لعب بنا فخيّل إلينا أن الهر أسد ضرغام . فأسرع الشريف
 قائلاً :

— لا يا سيدتي عائشة . إن الأسود ما كر محتال بعيد الوثبة ،
 فمن الخير لنا ولأبي الطيب أن نكشف له الطريق . ثم خاض
 القوم في حديث آخر ، والمتنبي ذاهل في مهامه من الفكر ،
 كلما خرج من فلاة تلقفته أخرى ، ثم استأذن في الانصراف ،
 فخرج معه عبد العزيز الخزاعي . حتى إذا بلغا الدار أخذ
 المتنبي في نخل ثيابه وهو يسأل عبد العزيز :

— ما رأيك في حديث الشريف ؟
 — أكبر الظن أنه يقول الحق .
 — أخشى أن يكون قد طوح الخيال به قليلاً .
 — إذا كان في حديثه بعض التهويل فيني أعتقد أنه لم يعد

الحق .

— بيتنا وبين الأسود أيام إن لم ينجز فيها وعده فويل له
منى في التيقظ والمنام ! ثم أخذنا في فنون شتى من الحديث ، حتى
إذا حانت ساعة النوم انصرف كل إلى سريره .

ومرت أيام ، ومر شهر وأكثر من شهر ، وكافور لم ينجز
وعده ولم يشر إليه ، وتحقق المتنبي من أن الرجل خدعه ، وأن
الشريف كان صادقاً حين وصم الأسود بكل نكراء . ونظر
أبو الطيب فرأى ما بناه من الآمال ركاماً ، وما صورّه من
المجد أحلاماً ، وأن الطائر الذهبي الذي طالما ناغاه فرّ من بين
يديه في الهواء ، وذهب إلى آفاق غير هذه الآفاق . ولم يعد
يشك في أن العبد أغراه بالقدوم إلى مصر ليحتبسه بمصر ،
وليجعل منه شاعراً مأجوراً ، يسبح بحمده في البكرة والعشى ،
في سبيل لقيات يقذفها إليه في الصباح والمساء . ألا نحسّ
الأسود ، ونحسّ اليوم الأسود الذي شددت فيه رحالي إليه !
أيملك الملك والأسياف ظامئة

والطير جائعة لحم على وضّم

من لو رأى ماء مات من ظمأ

ولو عرضت له في النوم لم ينم

خبيّة

أفاق المتنبي من أوهامه ، وتيقظ من أحلامه ، وعلم أنه
أخطأ حين ظن أن الناس يرون فيه ما يرى في نفسه ، وأنهم
يقدرّون منزلته كما يقدرها . أفاق وقد ذهبت أمانيه بددا ، وحالت
مطامعه رماداً تذروه الرياح ، فلم يبق إلا أن يعلق آماله بفاتك ،
وأن يتجنب الأسود ويعود إلى ما عوده من كبر وأنفة .
أنشأ أبو الطيب قصيدة رائعة في مدح فاتك تلقفها الناس ،
وسارت بها الرواة ، وفهم منها الأدباء أنه يعرض بكافور ويسخر
من عوده حين يقول :

واجزّ الأمير الذي نعماء فاجئة

بغسير وعد ونُعمى الناس أقوال

فربما جزّت الإحسان موليه

خريدة من عذارى الحى مكسال

ودخل أبو بكر بن صالح على كافور وقال : إن الناس
لا شغل لهم منذ شهر إلا إنشاد قصيدة المتنبي في فاتك ، والترنم
بأبياتها ، وأخشى يا مولانا أن يترك هذا الشعر أثراً في نفوسهم ،
فقد خلع عليه الخبيث كل صفات النجدة والكرم ، ولم يبق
للأمير منها شيئاً . وقد نفي أن يكون له في المملكة مثيل أو نديد
حين قال :

لا يُدرك المجد إلا سيدٌ فطن
لما يشقُّ على السادات فعّال
كفاتك ودخول الكاف منقصة

كالشمس قلت وما للشمس أمثال
فزفر كافور وقال : هذا الشاعر كاد يضيق به صدرى ، وكلما
أرخت له العنان زاد عريضة وجنونا . دعه الآن يا ابن صالح فإن
يومه لم يأت بعد . خبرنى ، ألا يزال يذكر الولايات ، ويتغزل
فى الإمارات ؟

— لا يا مولانا إنه عدل عن هذا ، وعلم أن الله حق .
فقهقه كافور وقال :

— إني أجازى خيال هؤلاء الشعراء بخيال مثله . راقبه
يا أبا بكر . فإني أخشى أن ينتهى أمره إلى شر غاية . وبينما هما
فى الحديث إذ ثارت جلبة فى القصر ، وتعالى أصوات الهتاف ،
ودخل الحاجب وهو يقول : إن شيباً العقيلي مات بدمشق .
مولانا ! فوقف كافور اهتماماً بالخبر ، ورفع يديه إلى السماء
فى تعبد وخشية ، وهو يتمتم : الحمد لله ! الحمد لله ! اللهم إني
عبدك المسكين ، فأنصر عبدك المسكين على أعدائه الأقوياء .
ثم مال إلى أبى بكر وهمس فى أذنه : لقد شرب السم إذا .
الحمد لله ! الحمد لله !

من الذى بعثته إليه بالسم ؟
— بعثت إليه الحارث التميمي ، وهو شاب مجازف ، وقد

وعده بخمسة دينار .

— إنه يستحق . كيف توصل هذا الشاب إلى هذا الأسد

المصور يا ترى ؟ وكيف استطاع أن يدس له السم ؟

— لقد أخبرني قبل رجليه . بما اعتزم فعله ، فقد كان

ينوى أن ينضم إلى جيش شبيب ويظهر من الحماسة في الحرب

ما يقربه إلى قلب العقيلي ، حتى إذا وثق من منزلته عنده ،

وسنحت له الفرصة ، مزج له السم في الطعام .

— هذا توفيق من الله . فكم من دماء حققتها هذه القطرات

القليلة من السم ! وكم من أرواح أنقذتها ! ونفوس ردت إليها

هدوءها وسكينتها ! لقد كان العقيلي شجاعاً يا ابن صالح .

— أما وقد مات ، فقد كان رجلاً لم تلد الأمهات مثله

في الشجاعة والبطولة والكرم . ولقد كدنا نعيًا بأمره ، لأننا كلما

أرسلنا إليه جيشاً هزمه وفرق جموعه ، حتى حاصر دمشق ودخله

دون أن يستطيع أحد أن يقف في طريقه . ولولا تلك الحيلة التي

ابتكرها مولانا لذهبت منا الشام ، وربما ذهبت بعدها ولايات أخرى .

— إنه خارج علينا يا أبا بكر . لقد وليناه أول الأمر عثمان

والبقاء ، فلم يكتف بهما ، ولم تقف به مطامعه عند حد ،

فاستهان بقوتنا ، وأدل علينا بكثرة خيله رجله . ثم ابتسم ،

كما يفغر الشعبان فاه ، وقال : إن لله جنوداً لم تروها ، منها السم الزعاق .

سرت البشرى في أنحاء المدينة ، وعين يوم في القصر

للاحتفاء بهذا النصر المين ، وجاء هذا اليوم فتوافد على القصر

لوزراء والعلماء والقواد والأدباء وسراة المدينة ، وأعدّ المتنبي
نصيذة لينشدها في هذا الجمع الحاشد، وكان حاقداً على
كافور ، بعد أن حطّم آماله ، وقطع أوتاره ، فجاءت القصيدة
ثورة محموم ، وتنفس غيظ مكظوم . وكان أولها :

عدّوك مذمومٌ بكلّ لسان ولو كان من أعدائك القمران
ولما أنشدها وانفضّ الجمع ، قابله ابن رشدين وهو يقول :
الشعر بديع يا أبا الطيب ، ولكني في الحق لم أدر ، وأنت
تنشدها أكنت ترثي شيباً أم تمدح كافوراً ؟
— كنت أرثي شيباً ، وأعتقد أن هؤلاء الأوغاد غدروا به
ودسوا له السم .

— وأنا أعتقد كما تعتقد ، ولكني إذا طلب إلى كافور أن
أقول قصيدة في ظفري بعدوه لأقول ما قلت .
— وماذا كنت تقول .

— كنت آتي بأعذب الشعر وأكذبه . ثم تجذب منه
لورقة وقال اسمع :

برغم شبيب فارق السيف كفه
وكانا على العيالات يصطحبان
كأن رقاب الناس قالت لسيفه
رفيقك قيسى وأنت بماني
فإن يك إنساناً مضى لسبيله
فإن المنايا غاية الحيوان

وما كان إلا النارَ في كل موضع
تُشير غباراً في مكان دخان
فقال حياة يشتهيها عدوه
وموتا يشهى الموت كل جبان
ننى وقع أطراف الرماح برمح
ولم ينخش وقع النجم والدبران
وقد قتل الأقران حتى قتلتهم
بأضعف قرم في أذل مكان
أنته المنايا في طريق خفيّة
على كل سميع حوله وعيان
ولو سلكت طرق السلاح لردّها
بطول يمين واتساع جنسان
هذا أبداع رثاء لشبيب ، وهذه أكبر تهمة لكافور باغتياله
أين يذهب بك يا أبا الطيب ؟ أجننت ؟
— إن عيبى عندكم أنى أقول ما فى نفسى ولا أتملق تملق الإمام
— قل ما فى نفسك لى والكثير من أصدقائك ، ولكن
لا تقله فى حشد من النقاد ينتظرون الفرصة للإيقاع بك . لقد
نصحتك الشريف فلم تنصت لنصحه .
— إن شعرى لا يطاوعنى على الكذب الصراح ، يا ابن رشدين
— غير من خلقك قليلا حتى تصرف عنك عين كافور
— أنا لا أبالى بكافور ، ولا آبه لجبان يقتل الناس بالسم

وسأصون شعري عن هذا الأبحق حتى يصدق في وعده ،
أو يأذن الله برحيلي عنه . فجذبه ابن رشد من يده وقال : هلم
بنا إلى الدار . وانطلق الاثنان صوب دار ابن رشد فلاقتهما
عائشة مريحة ضحكوكاً ، وهي تقول : لا أشك في أنك أبدعت
اليوم يا أبا الطيب ، لأنك تعود اليوم إلى فنك الذي امتزت
فيه ، وهو وصف الوقائع وتمجيد الظافرين . وقد عشت بيننا
عيشة هادئة ليس فيها إلا سلم دائم ، واستقرار هنيء ، وهذا
الحو لم يخلق له شعرك الذي لا يجلجل إلا في قتام الحروب ،
وضليل السيوف . وكلما قرأت شعرك في وقائع سيف الدولة
أسفت لأنك فارقت ، ولكني لا ألبث أن أعود إلى الأثرة
فأستهن بالشعر كله في جانب الظفر بمودتك . ليس عندنا هنا
روم يغيرون على تخومنا ، وليس عندنا قبائل متناكرة يخلعون
طاعة الأمير كلما صاح بهم صائح . فنحن نعيش في جنة
عالية ، قطوفها دانية ، لا تسمع فيها لاغية . وقد جبلنا على
السمع والطاعة لأمرائنا ، واجتمعت كلمتنا على أنه ليس في
الإمكان أبدع مما كان ، لذلك كنت أفكر في شأنك يا أبا
الطيب آسفة معتقدة أنك لم تخلق لهذا السكون الشامل ، والأمن
الوارف ، وأتخيل أنك ولدت في ليلة عاصفة كثيرة الأنواء
والأعاصير ، كان الرعد فيها يصدع أقطار السماء ، والصواعق
تنقض كأنها رؤوس الشياطين ! لقد صدى سيفك في غمده
هنا يا أبا الطيب ، ومل جوادك من طول الوقوف . إن مثلك

لم يخلق ليجلس في شمس الشتاء ، أو يقضى أصيل يوم الصيف
في زورق يقذف به نسيم النيل الواني من مصر إلى حلوان . وإنما
خلقت للصراع والصدام ، وأن تدخل من قتام في قتام . لهذا
حين علمت أنك ستشهد اليوم قصيدة في تهته كافور بالظفر
بشبيب ، قلت في نفسي لقد جاء أوان صاحبي ، وستسمع
مصر اليوم شعراً جمعت تفاعيله من أسنة الرماح وشفار السيوف .
فماذا قلت يا فارس الهيجاء ؟

— قلت يا سيدتي قصيدة كان كل ذنب فيها في رأى أخيك
أنى كنت صادقاً .

— ما عليك من أخى . هات القصيدة . ثم جذبت الورقة
من يده وأخذت تقرأ ، فلما أتمت قراءتها صاحت : إني لأجد
ريح يوسف ! وإني لأرى في هذا الشعر صاحبي القديم وهو
يعود ثانية إلى عثرته ، فيصف الحرب ومواقع القتال ، ولن
يستطيع شاعر من شعراء الإنس والجن أن يصور قدرة ملك
كما يصورها هذا البيت :

لو الفلك الدوار أبغضت بسعيه

لعوقه شيء عن الدوران

ماذا تقول في هذه القصيدة يا صالح ؟

— أقول إنها ملأى ببدايع الفن ، ولكنها فارغة من السياسة .
فقهقهت عائشة طويلاً وقالت :

— أنت يا صالح منذ لحقت بديوان الرسائل وأنت تخشى

من كل شيء، وتتهم كل شيء. قاتل الله المناصب، فكم أذلت
أعناقاً، وأخرست أفواهاً. ليس في القصيدة شيء إلا أن يخرج
بها المتعنتون إلى غير مخرجها. إن فيها مديحاً رائعاً لكافور
لم يظفر الرشيد والمأمون بمثله. فماذا فيها يا صالح مما تراه خارجاً
عن سياج السياسة؟

— فيها يا أديبتي البارة أبيات إلى الدم أقرب منها إلى
المديح، ولا يعلم إلا الله ما تكون العاقبة لو تطفل خبيث ففسر
لكافور معنى هذا البيت:

ولله سر في علاك وإنما

كلام العدا ضرب من الهذيان

ثم إن فيها عشرة أبيات كلها ثناء وبكاء على شبيب،
وليس فيها من الإشارة إلى الانتصار شيء. لقد حادثت أبا الطيب
في هذا وحذرت من الانسياق وراء سوء عقيدته في كافور. فإن
الرجل غادر ما كر، ونخشي أن يشب وثبة مفاجئة. وأبو الطيب
أعز علينا من أنفسنا، فليس من الوفاء له أن نتركه يقذف بنفسه
في هذه الفتن الهوج، وأن يسقط فيما ينصب له من فخاخ.
وهنا ظهر الحزن على وجه عائشة وقالت:

— صدقت يا أخي إن الناس جميعاً يداجون، ولا يظفر
بحاجاته منهم إلا أبرعهم في المداجاة، ثم نظرت إلى أبي الطيب
وقالت:

— إننا نعيش في جو كله سموم، حتى إن سمومنا تجاوزت

مصر ووصلت إلى قدح السوق الذي شربه شبيب بدمشق .
 إنك لا تستطيع أن تصاول الأسود في ميدان ، لأنه يحارب
 بأسلحة لا تعرف منها سلاحاً . والخروج اليوم من مملكته محال
 لأنه لو أراد لجعل لك من مصر كلها قفصاً قضبانه من الحديد .
 فلم يبق إلا أن تجامل الرجل وتصانعه حتى يقضى الله أمراً كان
 مفعولاً . فزفر المتنبي طويلاً وقال : هذا حكم القدر الساخر .
 وإذا رأيتهما أن لا بد من مصانعة الأسود ، فلا بد ، مما ليس
 منه بد ، ولكن ماذا أفعل لأتقى شر هذا الخبيث ؟

— ترك ذكر فاتك أولاً فلا يمر لك بلسان ، ثم تزور
 القصر في كل يوم ، ثم تركب في مواكب الأسود أينما ذهب
 وسار ، ثم تجامل ابن الفرات وأبا بكر ابن صالح ، ثم ترقب
 فرصة تنشدها كافوراً قصيدة خالصة له واضحة المعالم ، ليس
 فيها التفاف ولا التواء .

فتأوه المتنبي وتململ ، وقال : إنني يا سيدتي كدت أياس
 من الحياة وأسمين بنعيمها وبؤسها . ثم أنشد وهو يتحفز للقيام :
 بم التعلل ؟ لا أهل ولا وطن

ولا نديم ولا كأس ولا سكن

أريد من زمني ذا أن يبلغني

ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

لا تلق دهرك إلا غسير مكثرت

ما دام يصحب فيه روحك البدن

مرض

استمع المتنبي لنداء عائشة فكان يزور القصر في كل يوم ، ويبسط من وجهه لرجاله ، ويتحين الفرص للقاء ابن الفرات وأنى بكر ، ويبدل لهما ما يستطيع من بشر مصنوع . وكانت أبواب كافور أمامه مفتحة مرفوعة الحجب ، فوجد المتنبي من سهولة الوصول إليه مجالا لاجتذابه ، وسيلة إلى العود إلى مطالبه مرة بالتصريح ومرات بالتأويل . والأسود لغز مغلق ، أو بيت من أبيات الفرزدق تعب فيه العربون والشارحون ، فهو دائماً يبتسم ، وهو دائماً مهذب أنيس متواضع ، وهو دائماً إذا أشار المتنبي إلى مطامحه سريع الإجابة على شرط ألا يفهم من إجابته شيء .

خرج المتنبي من عنده يوماً وهو مهموم بعد أن مرق هذا الزنجي وسائله ، وقطع حياته ، وبعد أن عبث بهذا العقل الحكيم المتفلسف كما يعبث الصبي بالأكر . خرج يتعثر في طريقة وهو يشعر بصداع شديد كاد يمزق جبهته وصدغيه ، ويحس برداً يسرى في أوصاله اهتزت له ذراعاه ، وقضقت أسنانه ، فأسرع إلى داره وهو يمشى كالمختبل ، وما كاد يصل إليها حتى دعا عبده مسعوداً ليساعده على خلع لباسه ، فلما انتهى رمى بنفسه في فراشه وهو يصيح : غطني . زملني . لا تترك

في الدار غطاءً ولا مطرفاً ولا حشيتة إلا وضعتة على جسمي !
أوقد النار يا مسعود . إن تلوج الشام جميعاً تتساقط على فراشي ،
وتنفذ إلى مسارب جسمي . لقد قتلتني ابن سوداء الحبين بالسهم ،
سأمت بهذا البلد النائي طريداً شريداً خائب الأمل مفصوم
الرجاء .

وعصفت الحمى بالمتنبى ، واجترفه تيارها فتصيب جسمه
عرقاً ، وراح في سبات مضطرب قلق ، وأخذ يهذي ويصرخ
بألفاظ تقطع نياط القلوب . فقد سمعه عبده وابنه وهو يقول :
جئت مصر يا أبا الطيب ؟ . . . إضرب هذا الكلب يا محسّد
قبل أن يشب على مرحى مرحى . . . كنت ترجو أن
تنال كل شيء ، فلم تظفر بشيء . . . أبعد الكلب عني يا مسعود .
مسكين مسكين . . . حلب حلب أين منك حلب . . . مرحباً
بمولاى سيف الدولة !

نهبت من الأرواح مالو حويته
لهنت الدنيا بأنك نحالد

لقد كاد يقتلني هذا الفرس الجامح . . . لا تكثر من
الكلام يا ابن رشدين . . . جئت إلى الأسود فعاقبني الله على يد
الأسود . . . يا للخزي ويا للعار . . . ذهب مجد أبي الطيب . . .
كافور ! أنت الشمس وأنت القمر . . . معد بن عدنان فداك
ويعرب . . . ها . . . ها . . . معد بن عدنان فداء هذا الزنجي
الحبشي الذي بيع بثمانية عشر ديناراً . . . ها . . . ها . . . ثمانية

عشر ديناراً ليس غير . . . ليس غير . . . من يشتري ؟ . .
سنبيع العبد أيها السادة . . .

ثم تشتد به الحمى فيغط في نوم عميق .
أصيب المتنبى بالحمى الأجمية (الملاريا) وكانت إصابته
شديدة ، وحينما أفاق في الصباح زالت عنه آثار الحمى ونحمت
نارها ، ولكنها خلفت وراءها آلاماً في العظام ، وضعفاً في
الجسم شديداً . ف قضى النهار في سريره ، وما كادت تختفي
الشمس ويرسل الليل على الكون سدوله ، حتى عاودته الحمى
أشد ما كانت ، وسبح في بحر مضطرب من الهراء والهذيان .
ومرت ثلاثة أيام لا يزور فيها المتنبى دار ابن رشد ،
فقلقت عائشة ، ودخلت على أخيها شاحبة مضطربة ، وهي
تقول :

— هل رأيت أبا الطيب ؟

— لم أره منذ ثلاثة أيام . ماذا بك يا عائشة ؟

— ليس في شيء إلا أنه لم يعودنا أن يتقطع عن زيارتنا يوماً
واحداً ، وأخشى أن يكون قد أصابه مكروه .

— لا تراعى يا حبيبتي ، فقد يكون ذهب إلى بعض
أصدقائه بالجيزة ، وقضى عندهم أياماً ، وسأذهب الآن إلى داره
وأتيك بالخبر اليقين .

— اذهب يا صالح وعد إلى بجلية الأمر ، فإن الشك
يكاد يقتلني .

وخرج صالح مسرعاً حتى بلغ الدار ، والشمس مائلة
 للمغرب ، فلما دخل وجد العبيد صامتين واجمين ، وأحس
 بسكون الموت يلف الدار ، ويرف بجناحه البارد على كل ركن
 من أركانها . فرّ حتى بلغ حجرة المتنبى فرأى محمداً ومسعوداً
 جالسين حول سريره في حزن وإطراق ، ورأى المتنبى مشجىً
 يتنفس تنفساً قصيراً مضطرباً . فمشى على أطراف أصابعه كأنه
 يمشى فوق أرض مقدسة ، ثم لمس كتف محمد لمساً خفيفاً ،
 وأشار إليه أن يخرج ليسأله . فلما خرج سأله مدعوراً :
 — ما الخبر يا محمد ؟

— لا ندرى يا سيدى . فقد جاء أبى من القصر مساء
 السبت وهو يشعر ببرد شديد ، ثم انتهى هذا البرد إلى سخونة
 كأنها من لفع الحميم ، ثم حسنت حاله في الصباح ولكن
 الحمى لا تزال تراوحه كل مساء .

— سيشفى قريباً إن شاء الله . لا تجزع يا محمد ، فإننا
 اعتدنا هذه الأمراض في مصر حتى ألفناها . سأمركم في
 الصباح لأراه ، وأرجو أن يكون قد أبل .

ويذهب قدماً إلى عائشة فينفض إليها الخبر ، فتطير نفسها
 شعاعاً ، وتسرع إلى ثيابها لترتديها فيصيح بها أخوها : إلى
 أين يا عائشة ؟

— إلى أبى الطيب . هلم معى إليه فوالله ما يمنعنى من
 الذهاب وحدى إلا أنى امرأة ، ولن يلقى بنا يا أخى أن نترك

هذا الرجل الغريب المسكين يموت وحده منكوداً محسوراً . إن
من اسمه يملأ فم الدنيا ، وشجره تتغنى به الآفاق ، يرقد الآن
مسجىً في قاعة مظلمة ، يطلب العطف فلا يجده إلا في قسوة
الأقدار ، والحنان فلا يراه إلا في مخالب الموت ! هلم يا أخى إليه ،
فلعلنا نستطيع أن نعمل له شيئاً إن بقي هناك شيء يعمل .

ويصلان إلى الدار ويدخلان حجرة المريض وهو يصلى
بلهيب الحمى ، ويثن أنيناً ، وقد عاوده الهذيان فجعل يصيح :
حاذر سيف الدولة . . . إن العليج وراءك وسيفه في يده . . .
لقد قتلت الملعون برمحي . . . قتله . . . قتله . . . ما هذه
النيران التي ترسلها علينا الروم كأنها قطع الجحيم ؟ . . . أبعدوا
هذه القروود عني . . . أنا اليوم والى صيداء . . . أقبلوا أيها
الوفود . . . هل من ظلامه ؟ . . . الصل الأسود ! . . . أبعدوا .
الصل الأسود عني . . . إنه كاد يقتلني . . . مدحته . . .
مدحته . . . وماذا في يدي ؟ . . . لا شيء . . . لا شيء . . .
آمالى ؟ . . . أطماعى ؟ . . . طموحى ؟ . . . هواء . . .
هواء . . . هواء .

وغلبته الحمى فحبست لسانه ، وسمعه صالح وعائشة فغلبهما
البكاء ، وأخذت عائشة تهز رأسها في حزن ممضٍ وتقول :
واحسرتاه على البطولة الوثابة ، والرجولة الغلابة ! واحسرتاه على
الحلق الراسخ ، والمجد الشامخ ! على مثلك أبا الطيب تشق

الحيوب وتمزق القلوب . أسفى على ذلك اللسان العصب الذى
كان ينثر فرائد الحكم ، كيف أصبح يهذى كما يهذى الممرور !
وعلى ذلك العقل القهار ، كيف اضطرب ميزانه والنهته
النيران !

ثم قامت متعثرة متخاذلة ، وهى تقبض على يد أخيها وتقول
لمحمد : لا بد له من طبيب . لا يصح أن نترك شاعر الدنيا
وحكيمها يموت دون أن نبذل كل شيء فى سبيل شفائه .
سأذهب أنا وأخى إلى الطبيب .

ثم يخرجان فى عجلة حتى يصلا إلى دار بزقاق القناديل ،
كان يسكنها « نسطاس بن جريج » أشهر أطباء مصر فى هذا
العهد ، حتى إذا طرقا الباب وأخبرا الطبيب الخبر ، لبس ثيابه
على عجل وخرج معهما حتى بلغوا دار المتنبي ، وبعد أن اختلى
الطبيب بمحمد وأخبره بكل شيء ، دخل على المريض فجلس
يده ، وهز رأسه وقال : إن المرض شائع معروف بمصر . وهو

سليم العاقبة إذا عنى بالمريض . ثم التفت إلى عائشة فرأى الدموع
تهمر من عينيها ، فضحك طويلاً ، وربت كتفها وهو يقول :
لا تخافى يا سيدتى على شاعرنا ، فإنى عابحت آلافاً من أمثاله ،
وقد شفوا جميعاً . والذى أوصى به أن تبعدوا عنه اللحم والسملك ،
وأن تقصروا غذاءه على اللبن ، وأن تسقوه إذا عطش ماء السكر
الممزوج بعصير الليمون . وسأبعث إليكم بقارورة دواء يشرب
منها نصف كأس ثلاث مرات فى كل يوم . إنه سيجد الدواء

مرا . ولكنه دواء شاف سريع الأثر . ثم التفت إليهم وقال في
سخرية تُحبّ دائماً من الأطباء : لا تخافوا يا أولادى فإنه
سيشفى بعد أيام ، ثم حيّاهم وانصرف ، وقد ملأ نفوسهم آمالاً ، وبدّ لهم
من بعد خوفهم أمناً . والتفت عائشة إلى محمد كالمستأذنة
المتهية وقالت : هل من بأس فى أن أبيت أنا وأخى هنا الليلة ؟
فأجاب مسرعاً : لا يا سيدتى إن ما تبشّنه حول المريض من رحمة
وحنان سيكون أشقى له من كل دواء .

واستيقظ المتنبى فى الصباح مضطرباً منهوكة ، فلما فتح عينيه
ورأى صالحاً وعائشة جالسين إلى سريره كاد ينكر ما أبصر ،
فحملق فى دهش وقال فى صوت خافت : أنت هنا يا صالح ؟ !
أنت هنا يا سيدتى ؟ ! ! الآن لا أحس بأوجاع الداء . جزاكما
الله عن الغريب المسكين خيراً ! لا تخافا على ، فإنى لا أظن
أنى مائت فى هذه الرقدة ، لأن الله أكرم من أن يقضى على
قبل أن أنال من آمالى شيئاً .

وبعث الطبيب بالدواء ، ومرت أيام على أبى الطيب كان
شعر فيها بديب الشفاء يسرى فى أوصاله ، فلما استطاعت يده
أن تقبض على القلم طلب من محمد ورقاً ، ثم وضع يده على
جبهته ، وسرى فى بادية من الخيال ، وأخذ يكتب . وعاد بعد
حين صالح وعائشة إلى زيارته فمد إليهما يده بورقة فاخططتها
عائشة ونظرت فيها ملياً ، فإذا قصيدة من أروع ما تنفّس به
الشعر العربى ! بدأها بالشكوى وضعف الثقة بالناس . ثم ثنى

بوصف الحمى التي أصابته ، ثم عاد إلى ذكر سوء حاله بمصر ،
 وإلى تمنى الرحيل عنها ، في أسلوب يستتزل العصم ، ويذيب
 الصخور الصم . نظرت عائشة في القصيدة ثم قرأت بصوت
 عال :

ولا صار ودُّ الناس خبيثاً
 جزيت على ابتسام بابتسام
 وصرت أشك فيمن أخطفيه
 لعلمي أنه بعض الأنعام
 وآنف من أخى لأى وأى
 إذا ما لم أجده من الكرام
 ولست بقانع من كل فضل
 بأن أعزى إلى جسد همام
 عجت لمن له قدٌ وحده
 وينبو نبوة القضم السكهام
 ولم أر في عيوب الناس شيئاً
 كنقص القادرين على التمام
 أقمت بأرض مصر فلا ورأى
 تخبّ في الركاب ولا أمامى
 وملى الفراش وكان جنبي
 يملُّ لقاءه في كل عام

وزائرتي كأن بها حياءً
 فليس تزور إلا في الظلام
 بذلت لها المطارف والحشايا
 فعافتها وباتت في عظامي
 أراقب وقتها من غير شوق
 مراقبة المشوق المستهام
 ويصدق وعدّها ، والصدق شر
 إذا ألقاك في الكرب العظام
 أبنت الدهر عندي كل بنت
 فكيف وصلت أنت من الزحام ؟
 جرحت مجرّحاً لم يبق فيه
 مكان للسيوف ولا السهام
 يقول لي الطبيب : أكلت شيئاً
 وداؤك في شربك والطعام
 وما في طبعه أني جواد
 أضرب بجسمه طول الجمام
 تعود أن يغبر في السرايا
 ويدخل من قمام في قمام
 فإن أمرض فما مرض اصطباري
 وإن أحرم فما حرم اعتراحي

وإن أسلم فما أبقى ولكن

سلمت من الحمام إلى الحمام

فلما انتهت صاحت : لقد غفرت للحمى كل ذنوبها !
وإذا كانت الكوارث تخلق مثل هذا الشعر ، فمرحباً مرحباً
بالكوارث !

وتسامع الأدباء بالقصيدة ، وأقبلوا زرافات على دار المتنبي
يستنسخونها ، وأجمعوا على أنها خير ألف مرة من رائية عبد
الصمد بن المعتز في وصف الحمى . ووصلت نسخ منها إلى
القصر ، واجتمع رأسان لقراءتها ليستخرجا منها ما يصلح للديانة
جديدة ، هما رأس ابن الفرات ورأس أبي بكر بن صالح .
ولكن روح المتنبي كانت تحوم حولهما وهي تهمس :
ومراد النفوس أصغر من أن

تتعادى فيه وأن نتفانى

غير أن الفتى يلاقى المنايا

كالحنات ولا يلاقى الهوانا

فرار

أبل المتنبي من الحمى ، وعادت إليه قوته ، وأخذت آماله
تطل برءوسها من جديد ، وعاد أصدقاؤه وخلصاؤه ينصحون له
بمعاملة كافور ، واستجلاب مودته ، بعد أن أساءته قصيدة
الحمى وزادته سخطاً على الشاعر . فعاد المتنبي إلى زيارة القصر ،
وإلى مجازاة الابتسام بالابتسام كما يقول ، حتى إذا كان شهر
شوال سنة ثلاثمائة وتسع وأربعين أوعز كافور إلى أحد ندمائه
أن يدعو المتنبي إلى مديحه ، وأن يمينه الأمانى . وكان كافور
يريد أن يزيل بالقصيدة الجديدة ما تركته قصيدة الحمى من
سوء الأثر في نفوس المصريين واستجاب المتنبي لما طلب منه ،
وعاوده الأمل في أن الأسود سيفي بوعده آخر الأمر ، وأنشأ
قصيدة كانت آخر سهم في كنانته . والقصيدة — كما عودنا
أبو الطيب عند مدح كافور — ليس فيها من مدح كافور
إلا التافه اليسير ، فإنه تحدث فيها عن نفسه في ثمانية عشر بيتاً ،
وألح في إنجاز ما وعده به في عشرة أبيات ، كان منها :

وفي النفس حاجات وفيك فطانة

سكوتى بيان عندها وخطاب

ولما أتم المتنبي القصيدة أمام كافور ، قال له ابن القرات
في خبث ودهاء : أجدت أبا الطيب وأحسننت ! غير أن

قصيدتك في مدح فاتك كانت أجزل من هذه ، وأطول نفساً ،
ولكن لعلك تريد أن تحقق ما قلته في قصيدة فاتك :
وقد أطال ثنائي طول لابسه

إن الثناء على التنبال تنبال
فوجم المتنبي لهذا السهم النافذ ، وعلم أن لا مخلص له من
الدسائس ما دام بين هؤلاء المناكيد .
وانتظر المتنبي وعد كافور فطال انتظاره . وكان الأسود قد
أذن لفاتك بدخول الفسطاط للاستشفاء بعد أن ألحت عليه العلة
بالقيوم ، فجدد أبو الطيب الاتصال به ، ورأى بعد أن يشس
من كافور أن يتزل حاجاته بواديه الخصب . وتوثقت المودة بين
الصديقين ، وهب الجواسيس وقالة السوء ينقلون إلى القصر كل
يوم أخبارهما ، وربما غالوا في الأخبار وزوقوا الأحاديث ، بما
يضيفون إليها من زور وبهتان .

ومر عام وأكثر من عام على هذه الحال فطالت الجفوة
بين المتنبي وكافور ، واتسعت الهوة ، وأصبح المتنبي لا يمشي
خطوة إلا ووراءه جاسوس يرقب كل ما يقول ويفعل ، ويكاد
يعد عليه أنفاسه .

زاره مرة ابن رشدين فاستقبلته عائشة ، وعلى وجهها مسحة
من كآبة ، وهي تقول :

— أهلاً بالشاعر الكسل ! أتمر سنة لا نسمع فيها منك

شيئاً ؟ !

— إن البلابل لا تغنى وسط حفيف السهام . إني قدمت إليك وورائي جاسوس صحنى من دارى إلى هنا ، وأنشى أنه لا يتخرج من أن يكون بعد قليل ثالثنا .

— كيف ذلك يا أبا الطيب ؟

— جيرانى أصبحوا على عيوناً ، وصاحب الأخبار يطرق دارى كل ليلة ليتحقق من أننى لا أزال بمصر ، وأننى لم أفر . وبينما هما فى الحديث إذ دخل ابن رشدين ومعه الشريف إبراهيم العلوى وعبد العزيز الخزاعى ، فلما رأوا المتنبي أقبلوا عليه يحيونه . وقال عبد العزيز :

— مالى أراك واجماً يا أبا الطيب ؟

— إن جبل كافور يضيق حول عنق قليلا قليلا ، فلم يبق إلا أيام حتى أختنق . فأسرع الشريف يقول : هذا صحيح . ويجب علينا جميعاً أن نفكر فى هذا الأمر الجلل . فصاحت عائشة فى ذعر : ما الخبر ؟

— الخبر يا سيدتى أن حاجب الوزير أبى بكر بن صالح شيعى شديد التمسك بمذهبه ، وهو لهذا يخلص لى الحب والمودة ، ثم هو يعلم صلتى بأبى الطيب . وقد زارنى اليوم وأكد لى أنه سمع كلاماً دار بين أبى بكر وابن الفرات يدل على أن هناك مؤامرة دنيئة تحاك خيوطها للإيقاع بالمتنبي بعد عيد الأضحى . فقالت عائشة :

— بقى على العيد أيام . . .

— في هذه الأيام نستطيع أن نعمل عملاً حسناً . فقال
عبد العزيز :

— الرأي عندي أن يستعد أبو الطيب من الآن للفرار .
ثم طلب منهم إغلاق الأبواب والمنافذ وعاد إلى الحديث فقال
بصوت خافت : يقوم العبيد غداً بدفن الرماح في الرمل وراء
المقطم ، وقبل الرحيل بقليل تحمل على الإبل قرب من ماء النيل
تكفي لعشر ليال ، ويحمل زاد يكفي لعشرين يوماً حتى إذا
كانت ليلة عيد الأضحى تسلك أبو الطيب إلى الصحراء بعد أن
يتسلل إليها قبله ابنه وعبيده ، وسأكون في رفقة الشاغر ،
وسنبتل فرصة اشتغال رجال القصر بالعيد وبما يوزعه عليهم
كافور من الهدايا والصلوات ، فنفر دون أن يشعر بنا أحد ،
حتى إذا فرغوا من العيد ومن منح الهبات ، ولن يكون ذلك
إلا بعد يومين نظروا يمنة ويسرة فلم يجدوا لطريدتهم أثراً .
فقال الشريف : هذا حسن . ولكن كافوراً إذا لم يجده بعد

يومين من فراره أرسل خلفه شياطين جنده فوق سوابق الخيل
فأدركوه ولو كان فوق بساط سليمان . فقال عبد العزيز :

— إننا سنغادر القسطنطينة قبل فجر يوم الأضحى ،
وسنمتطي جوادين من سلالة الجواد الذي وصفه أبو الطيب :
رجلاه في الركض رجل "واليدان يد"

وفعله ما تريد الكف والقدم
فلن يدركنا الظهر إلا ونحن أمام بليس ، وهناك أرسل مع

أبى الطيب بعض عبيدى الذين يعرفون مسالك الصحراء . فقال
أبن رشد في حدة :

— أى طريق يسلكون ؟ إن سلطان كافور يمتد إلى كل
طريق توصل إلى العراق .

— إنهم سيسلكون طرقاً غير معروفة ، ويطرقون مفاوز
مجهولة ، ويتزلون حول مناهل لم يطرقتها طارق ، وإن جنود
كافور بعد طول البحث والنصب سيتطلعون إلى السماء ،
ويظنون أن أبى الطيب قد اتخذ إليها سبيلاً . فتهدت عائشة
ونظرت إلى المتنبي ، ودموعها تنهمر انهمازاً . ثم عادت تفكر
فأرت أن حياته في ميزان القدر ، وأنها يجب أن تنسى نفسها
لقاء نجاته من كارثة محققة ، فحاولت أن تهفف من دموعها ،
وتبسط من وجهها وقالت :

— ولكن حتى يحين موعد الفرار يجب على أبى الطيب أن
يظل متصلاً بالقصر حتى يصرف الأنظار عنه . فقال الشريف
— نعم . وفوق هذا أرى أن يذيع بين رجال القصر أنه
سيشدد كافوراً قصيدة بعد أيام العيد . فصاح الجمع : هذا
حسن هذا حسن . . .

وقام المتنبي إلى داره ومعه عبد العزيز . وما أشرق عليهما
الصباح حتى شرعا في إنقاذ خطتهما في دقة وإحكام . وكان
المتنبي في غضون هذه المدة يروح ويحيى مطرقاً حزيناً يتمم
بكلمات ، ثم يخرج من كفه ورقة يدون فيها ما تفيض به

شاعريته . وتسلسل محسد والعبيد متفرقين من الفسطاط إلى بلبيس ، فلم يشعر بهم أحد . وانتظار المتنبي وعبد العزيز ليلة العيد حتى إذا هدأت الأصوات ، ونامت العيون ، ونحلت الطرق من السابلة ، خرجا من الدار في إسراع وصمت ، كأنهما طيف خيال أو خطرة يبال . وما جاوزا باب الصفاء ، حتى طار بهما الجوادان فلم تستب العين لهما أثراً .

ولاح فجر العيد سنة خمسين وثلاثمائة ، وذهب كافور في موكب الحافل للصلاة بالجامع العتيق ، وشغل رجال القصر بعد الصلاة ببذل العطايا للعلماء وكبار الجنود ، ومضى يومان ذهل فيهما القوم عن المتنبي وعن تقصى أخباره . وحدث بعد ذلك أن دخل أبو بكر بن صالح على ابن الفرات وقال :

— لم نر المتنبي أيام العيد ولم يزرنا في خلالها فماذا جرى له ؟
— لعله مريض . فأرسل بعض الأعوان للسؤال عنه .

فأسرع أبو بكر وأمر طائفة من الجنود بالذهاب إلى دار المتنبي والتحقق من أمره ، وسار الجنود إلى الدار فأروا بابها مغلقاً ففتحوه ودخلوا فلم يجدوا بالدار ديناراً . فأخذتهم الدهشة ، وأخذوا يبحثون في كل حجرة . وبلغ أحدهم حجرة نوم المتنبي فرأى سريره وكأن فوقه شيئاً قد التف بغطاء ، فصاح في جذل :
هنا الشاعر يا إخواني ! هلم إلى ! إنه نائم في فراشه . وجاء الجنود ، ورفع أحدهم الغطاء فلم يجد تحته إلا ورقة كتبت فيها قصيدة طويلة فأخذها . وبعد أن يش الجنود من العثور على

الشاعر ذهبوا إلى أبي بكر وأخبروه الخبر . فأسرع إلى كافور وهو يرتعد من الغضب ويصيح : لقد فر المتنبي يا مولانا ! لقد فر من أيدينا على الرغم من كل ما بذلنا من حيلة وحذر ! فصاح كافور في صوت يخنقه الغيظ : أي حيلة وأي حذر ؟ ويل لنا منه إن لم تقبض عليه ! سيخلد هجونا على الدهر ، وسيجعل من اسمنا سخرية ترددها الأيام ! ابعثوا خلفه الجنود . ابعثوهم وراءه في كل مكان يمكن أن ينفذ منه : في الصعيد ، وفي طريق الشام ، وفي طريق برقة ، وفي الماء ، وفي الهواء . فر مني الفاجر وضحك مني ولعب بي ! وكنت أظن أنني ألعب بألف من أمثاله المغرورين ! وبينما هو في حدة غضبه يزجر كما يزجر النمر الجريح ، إذ مد الجندي يده إلى أبي بكر بالورقة التي رآها في فراش المتنبي فأخذها منه ويده ترتعد . وراه كافور فسأله ما هذه ؟ فلمح منها أبياتاً وقال :

يا مولانا هذه قصيدة وجدتها الجنود في فراش الشاعر البغيض
ولن أستطيع قراءتها . فصاح كافور في غضب مخيف : اقرأ
وبك كل ما فيها ، ولا تترك منها حرفاً ! فقرأ وهو يتصبب عرقاً :
عيد بأية حال عدت يا عيد ؟

بما مضى ؟ أم لأمر فيك تجديد ؟

أما الأحبة فالبيداء دونهم

فليت دونك بيسداً دونها يسد !

لولا العلاء لم تجب بي ما أجوب بها
وجناء حرف ، ولا جرداء قيدود
يا ساقبي أخمر في كؤوسكما
أم في كؤوسكما هم وتسهيّد ؟
أصخرة أنا مالى لا تحركنى
هذى المدام ولا هذى الأغاريد
إذا أردت كمت اللون صافية
وجدتها وحيب النفس مفقود
ماذا لقيت من الدنيا ؟ وأعجبه
أنى بما أنا بالك منه محسود !
أمسيت أروح مثر خازناً ويدا
أنا الغنى ، وأموالى المواعيد !
إنى نزلت بكذابين ، ضيفهم
عن القرى وعن الترحال — لود
جود الرجال من الأيدى ، وجودهم
من اللسان . فلا كانوا ولا الجود !
ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم
إلا وفى يده من نتهسا عود
أكلما اغتال عبد السوء سيده
أو خانه فله فى مصر تمهيّد ؟ !

نابت نواطير مصر عن ثعالها .
 فقد بشيمن وما تفي العناقيد !
 لا تشتت العبيد إلا والعصا معه
 إن العبيد لأنجاس منا كيد
 ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن
 يسيء لي فيه عبد ، وهو محمود !
 ولا توهمت أن الناس قد فقدوا
 وأن مثل أبي البيضاء موجود !
 جوعان يأكل من زادي ويمسكني
 لكي يقال عظيم القدر مقصود
 من علم الأسود المخصي مكرمة
 أقومه البيض أم آباؤه الصييد ؟
 أم أذنه في يد النخاس دامية
 أم قدره وهو بالفلسين مردود ؟

* * *

وعاد الجنود بعد شهر فدخلوا على كافور يخبرونه في دهش ،
 بأنهم لم يتركوا منفذاً إلا سلكوه ، ولكنهم لم يقفوا للمتنبى
 على أثر ، كأنه ابتغى نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء . فصبق
 كافور ، وكاد يسقط من كرسيه . ثم حمله مذعوراً كأنه كان
 ينظر إلى المتنبى وهو يفرقع بإصبعيه في وجهه ساخراً ويقول :

فربما شفيت غليل صبرى
 بسير أو قناسة أو حسام
 وضائق خطبة فخلصت منها
 خلاص الخمر من نسج القدم

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
 على مطابع دار المعارف بمصر

دار المعارف بمصر

تهدف إلى نشر الثقافة عن طريق الرق بالكتاب العربي
مكتبة الأطفال والناشئة :

أكبر وأجمل مكتبة للأطفال في الشرق العربي ، تضم أكثر من ٥٠
مجموعة تستهوي الأطفال بفنها وألوانها .

المكتبة الثقافية :

تقدم آخر ما وصلت إليه المنجزات البشرية ، وتكشف عن القيم
الحالدة للتراث الإنساني .

المكتبة المتخصصة :

تقدم الأعمال العلمية والفنية والأدبية التي تهتم القارئ المتخصص .

الكتب المدرسية :

نشرت الكتاب المدرسي في أرجاء الوطن العربي .

سلسلة (اقرأ) :

طبقت شهرتها الآفاق بتنوع موضوعاتها ، ورخص

خدمات التوزيع :

بجانب توزيع كتبها في جميع أنحاء العالم ، تقو
كتب أخرى مختارة بشروط خاصة .

خذ المعارف من دار المعارف

القاهرة : ١١١٩ كورنيش النيل و ٩ شارع كامل صدر
و ١٠٥ شارع شبرا - وميدان السيدة زينب
الاسكندرية : ٤٢ شارع سعد زغلول - وميدان التحرير بالفتية أسيوط

Bibliotheca Alexandrina



1102022



٥ قروش ج.ع. ٢٠	١٠٠ مليم في ليبيا	١,٥٠٠ ديناراً في الجزائر
٦٠ ق. ل	٧٥ فلساً في العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً في المغرب
٧٥ ق. س	١٢٠ فلساً في الكويت	١ ريالاً سعودياً
٦٠ مليمياً في السودان	١٢٥ مليمياً في تونس	